خلـــــود

رواية

سمير صابر الجندي

خلـــــود

رواية

سمير صابر الجندي

الطبعة الأولى 2009
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

صدرت عن
القدس للكتب والطباعة
القدس – بيت حنينا – هاتف: 0097226562041
E–mail:jerusalembookshop@jrol.com

التصميم
شريف سمحان
00972599875664

القدس عاصمة الثقافة
2009

لوحة الغلاف
إهداء من الفنان المقدسي
طالب الدويك

"آه يا روحي
لا تطمحي إلى الخلود
بل استنفذي حدود الممكن"

طاغور

إهـــداء

.... إلى زوجتي الحبيبة

التي وقفت معي في كل المراحل . . .

تقـديـم

لم تعد الرواية الفلسطينية لغزاً مغلقاً، أو طريقاً مسدوداً، فهناك الكثير من الكتاب الفلسطينيين الذين دخلوا عالمها بجرأة واقتدار، وهناك الكثير من البصمات الواضحة لروائيين فلسطينيين وضعوا أقدامهم بثبات ورسوخ في طريق العمل الروائي.

ونحن في هذا العمل الجديد (خلود) نلتقي بمحاولة جديدة وجادة من كاتب فلسطيني حاول أن يسجل بصمة جديدة وجادة من بصمات الكتّاب الفلسطينيين في مجال العمل الروائي، فجسَّد من خلالها علاقاتٍ إنسانيةً، وهموماً شخصية، وواقعاً تعيشه مدينة القدس حيثُ تتصارع حولها الأحلام والأماني، ونزعات الخير والشر، وبقاء الحياة والوجود بين الأنا والآخر.

ويمكن أن أقول باختصار، إن هذه الرواية لوحة فسيفسائية لمدينة القدس تجسِّد العديد من الرؤى والأحلام، قدمها الكاتب بجرأة واقتدار فاستحقت أن تكتسب من اسمها صفة الخلود.

أ. د. خليل عودة
عميد كلية الآداب/ جامعة النجاح

لم نكن على موعد حين التقينا ذلك المساء، لقاءً كل ما فيه صدفة، وقفت أمامي بهيئتها الأرجوانية، ووجهها المشرق بالحميمية والبراءة والطيبة، كان صافيا، لم تستطع الأيام العبث بملامحه، اقتربتْ من مقعدي وجلست قربي حتى لم يعد يفصلني عنها شيء، صمت جسدي، وكاد قلبي يخرج من مكانه، شعرت بعطرها، وأُنسها، تحركت كل خلايا جسدي واستفزت كل ذكرياتي التي ظننتها قد تلاشت مع السنين الطويلة التي التهمت معظم عمري، وعدت صبيا ينتظر محبوبته، التي اعتادت المرور أمام ناظريه في غدوها ورواحها، وعادت قصائدي التي نظمتها على إيقاع خطواتها، تعبر أمامي كالملاك الذي يحلق على جناح فراشة بيضاء، محلقة طربا على نغم كلاسيكي نُسجت موسيقاه بعناية إلهية، عاد الحلم بكل تفاصيله، عاد يحمل على جناحيه عبير المحبة وعطر العشق السرمدي.

كانت أمسية ولا كل الأمسيات، أمسية ولدت فيها من جديد رجعتُ إلى حياتي، أو رجعت إليّ حياتي، نعم، حياتي التي لها معنى وقيمة وثراء، ثراء في البهجة والطمأنينة والأمان، ثراء في القيم النبيلة والطموح الشريف. . .

كنت سعيدا لدرجة البهجة، انتزع النوم من تفكيري، لم أشأ أن يسلبني بعض سعادتي. . . غريبة هي الحياة بتفاصيلها وجزئياتها

الدقيقة، إننا لا نستطيع النوم عندما يلفنا الحزن وتلتهمنا المعاناة، كما لا نستطيع النوم عندما نكون في قمة سعادتنا، غريب أنت أيها الإنسان وعجيب أمرك، فأنت كتلة من المتناقضات. . .

لم ادر كيف تناولت جهاز الهاتف، وكيف طبعت أرقام هاتفها، وكيف اخترت حروف تحية الصباح. . . لا أعرف من أين جاءتني تلك الجرأة لأرسل لها رسالة نصية على هاتفها النقال. . .

بعد دقائق معدودة وبعد أن راحت السكرة، نهشني القلق، استهجنت الأمر، ماذا سيحدث لو أن الشخص الخطأ تناول الهاتف وقرأ تلك الرسالة؟

راودتني كثير من الوساوس خوفاً من أن أسبب لها الإحراج في حياتها، أخذت أضرب أخماسا بأسداس، أنّبت نفسي، عنّفتها على هذه الخطوة الطائشة، والتصرف الأرعن، تمنيت لو أن الأرض تنشق وتبتلعني. . .

مضى ذلك اليوم بطيئاً، لا روح فيه، عجزت عن عمل شيء مفيد، شعرت كأنني مقيد بسلاسل تضغط على روحي القلقة، حرثت المكان جيئة وذهاباً كبندول ساعة لا يملّ، تخاصمت مع القدر، أنبت نفسي المتهتكة، لعنت لحظة الخنوع لجهاز الهاتف، نظرت إلى ساعة يدي للمرة الألف في أقل من ساعة لعل الوقت يذهب حاملاً عجزي وقلقي. . . كم كرهت نفسي في ذلك اليوم!! استسلمت لأفكار سوداء أزعجتني بل أرعبتني، لعن الله الهواتف النقالة. . . لعن الله من صنعها. . .

تسارعت نبضاتي، وتجمدت مفاصلي عندما رن جرس هاتفي فجأة ولم يظهر على شاشته رقم المتصل. . . ترددت في الرد. . . لكنه

سكت . . . ثم بعد لحظات رنّ مرة ثانية، قلت في نفسي : تُرى من هذا المتصل؟ أيكون من أفكر به؟

من يا ترى يتصل بي دون أن يُظهر رقمه؟!

تملكتني تلك الأفكار السوداء مرة ثانية، حِرت في أمري مع استمرار الرنين، ولكن بعد إصرار المتصل على مكالمتي استجمعت بقية شجاعتي المتناثرة في متاهات نفسي، ضغطت على كبسة الاستقبال، ووضعت السماعة على أذني اليمنى ولم أتكلم، أردت أن أسمع حتى أعرف من المتصل . . .

كان صوتاً نسائياً شفافاً، عرفته، إنه صوتها . . . هدأت نفسي مرة واحدة كأنني أنزلت حملاً ثقيلا عن كتفي . . .

عانقني صوتها، أذابني همسها، طوقتني أنفاسها، فامتزجت مع أنفاسي وأحلامي وعشقي . . .

قالت لي :

- أردت أن أرد على تحيتك .

فلم اسمع أجمل من كلمات "صباح الخير" من ثغرها، لقد رسمت لها صورة حفرتها في قلبي، وجهها الصافي كنبع من الحنان، عيناها تلمعان بشغف، شفتاها كحبتي فراولة ناضجة، جسدها الغض، الذي تكاد الأرض لا تحمل سواه، كان يهتز لها قلبي ويرقص طربا، صادقت طيفها، أودعته كل أسراري، قرأت له كل قصائدي العذرية، أطلعته على رسوماتي الماسية، كان يفيض حناناً كلما رأى دمعة تصارع مقلتي، فيمد لي منديله الزهري الذي يحمل عطرها الملائكي، في ذلك المساء امتلأت رئتاي بذلك العطر، لأول مرة نجتمع أنا وهي وطيفها في مكان

واحد يسع الكون . . .

شعرت بأن الحياة تبتسم من جديد، رغبت أن أقدم لها حدائق الكون بأزهارها وأشجارها وجداولها، باقة حبّ.

تمنيت في هذا اليوم لو أن والدتي حاضرة لأقول لها: هأنذا يا والدتي قد التقيت بها . . .

ها هي حبيبتي التي حدثتك عنها ذات صفوة، ها هي من بحثت عنها أنا وأحلامي المتهالكة، ها هي يا أمي . . . ألم أقل لك إنني لم أفقد الأمل بلقائها؟

ألم أقل لك يا أمي إنها تنتظرني مثل ما أنتظرها في مكان ما في هذا الكون؟

ألم أحدثك عن جمالها وحسنها وحنانها؟ أنا لم أصفها لك كما يجب فأنا لا أحسن وصفها، ومفرداتي عاجزة عن الوفاء لحسنها . . . ها هي ذي يا أمي موجودة أمامي بلحمها ودمها، وسحر عينيها السوداوين الآسرتين . . .

لم أبح بمشاعري لأي إنسان غير أمي، هي تفهمني وتقدر ما أقول، لم تلمني أبداً ولم تضجر من سماعي، كانت بئر أسراري، كنت أُحدثها عن مكنونات صدري وأصف لها مشاعري، وآخذ رأيها في منعطفات حياتي، كانت تُبدي لي النصيحة التي غالباً ما آخذ بها، لقد كانت سديدة في رأيها . . . لم تستعجل الأمور، متأنية، صادقة مع نفسها ومع من حولها، لم أنس قرارها المصيري بعدم ترك المدينة مع من تركوها في حزيران عام سبعة وستين وتسع مئة وألف للميلاد، حين أراد والدي النزوح إلى عمان، قالت له:

– لن نترك هذه المدينة أنا وأبنائي، هنا ولدنا وهنا نموت . . .

كانت رابطة الجأش، قوية العزيمة، نافذة البصيرة، متماسكة في أصعب الظروف، شديدة الثقة بنفسها، وتُقدر من حولها . . .

أحبها الجميع، لما كان لها من احترام للآخرين، ولذلك كان يحترمها كل من عرفها، فهي لم تجادل، ولم تخالف، ولم تسئ لأحد أبدا . . .

٣

كنا داخل ذلك الملجأ النتن، الذي تفوح منه رائحة كريهة تقتل كل مشاعر الأمان والجمال والحياة، وبينما كان مذياع أبي زهير ينشد بصوت عال:

"ع الميدان يا بن الأردن ع الميدان . . . "

فإذا صوت يعلو منادياً عبر مكبرات الصوت:

- على جميع الرجال والشباب الخروج من المنازل والتجمع في الساحة فوراً . . .

اخفض المذياع يا أبا زهير حتى نسمع ما يدور في الخارج . . .

عاد الصوت الذي اقترب أكثر:

- على الرجال والشباب الخروج من البيت والتجمع في الساحة فوراً . . .

خرجت ممسكاً بيد أبي زهير، كنت أُحبه واحترمه كان رجلاً ضريراً، فقد بصره قبل أن يدرك الحياة وألوانها، لم أره خارج المنزل مكشوف الرأس "مفرع" إلا هذه المرة، لم يهتم بوضع الطربوش على رأسه وأنا لم أجد الفرصة لتذكيره بذلك، فلم يكن لينسى هذا الأمر مهما كانت الأسباب ولكنه الآن خرج دون الطربوش . . .

كنت دليله في اغلب طلعاته خارج المنزل، كان يعتمد عليَّ في ذلك، ضاقت الساحة بالزحام . . . الجميع في وجوم وصدمة، وجوه الرجال غيرها قبل خمسة أيام، لا أدري ماذا حلّ بها فقد صارت هزيلة، وألوانها غريبة ورائحة الحموضة تفوح من الأجساد، كرائحة الخضار

المتعفنة، عيونهم متعبة ناعسة، وحول العيون ذلك اللون الأسود الذي يكوّن إطارا من التعب والخوف والرهبة من المجهول، فمعظم الرجال الذين تجمعوا في الساحة عاشوا عذابات الشتات والهجرة القسرية عام ثمانية وأربعين . . .

يتهامس الرجال بصوت يشبه الهمهمات . . . هم اليهود وقد احتلوا المدينة، وهاهم يجمعون الرجال في الساحات، جنود مدججون بالأسلحة التي لم أتعود على رؤيتها من قبل، يضعون على رؤوسهم الخوذ السميكة، ويوجهون بنادقهم نحونا . . . وقف الجندي الذي يحمل بيده مكبراً للصوت يقول:

– نحن " جيش الدفاع الإسرائيلي " نحذركم . . . نأمركم بترك منازلكم خلال ثلاث ساعات وإلا سوف نهدمها على رؤوس من فيها . . .

ساد صمت رهيب لم يجرؤ أي من الرجال على التفوه بكلمة، قبض أبو زهير عليَّ يدي وشدها حتى خيل إليَّ بأنه ينتزعها من مكانها، وهمس بأذني قائلاً: – ابق هنا بجانبي، لا تتحرك.

بعد أن أنهى الجندي تهديداته، صرخ قائلاً:

– هيا تفرقوا . . . تفرقوا . . . تفرقوا . . .

كان بيتنا في حوش الشاي، في حارة الشرف، وبيت أبو زهير يقع في نفس الحوش نشترك بساحة صغيرة تتوسط البيتين، كنا نعيش كعائلة واحدة، لم أدرك أننا من عائلتين مختلفتين إلا مؤخراً كنت أحسب أبا زهير فرداً من أفراد عائلتي، فكنت أناديه العم " أبو زهير " . . .

عدنا إلى الملجأ، وهو عبارة عن إسطبل تقاسمناه مع حمير وبغال

الحاج عطوان، يحمينا من القصف والدمار. . كان معتماً، قذراً، لم تغادره رائحة الروث رغم محاولات تنظيفه المتكررة، يقع تحت منازل الحي في حوش الغزلان، داخل دهليز معتم، لا يبعد كثيراً عن فُرن الحاج (يتمْ)، ومنزل "الست أُميلا" (الداية) التي ولّدت معظم نساء الحي والأحياء الأخرى في البلدة القديمة، بل إن سمعتها وصلت إلى خارج المدينة. . .

للملجأ بوابة واحدة، ضخمة، أرضيته من التراب المشبع بالبرودة، وجدرانه عارية، تبرز حجارته من كل جانب، بعضها صغير بحجم حبة جوز الهند، وبعضها ضخم كالتي بني منها سور القدس، ولا توجد له منافذ أو فتحات. . .

اختلطت رائحة الروث الحادة برائحة الأنفاس، امتزجت مع الخوف، وانتظار المجهول الذي يقع تحت جلودنا الملتصقة بجدران الملجأ الباردة، كانت أعداد الأطفال كبيرة جدا يصارعون الجوع والعطش والحبس ببكائهم المتواصل، كان الرجال يتبرمون من بكائهم في البداية ولكنهم تعودوا عليه بعد ذلك، وكانت الأمهات يحاولن إلهاءهم بأثداء فارغة من كل شيء ما عدا الخوف الممزوج بالحنان. . .

كان قبل كل انفجار يصدر صفير مرعب تعقبه دعوات وصلوات، فنلتصق بأجساد أمهاتنا مرعوبين خائفين، وتهتز الجدران كمن يطوح بها، فيصفق الباب معلناً سقوط قذيفة أخرى في مكان ما. . .

تمتمات وأدعية وخشوع وخوف، وانتظار. . . انتظار صفير آخر. . .

خرجت ممسكا بيد والدتي وباليد الأخرى يد أختي، وبدورها تمسك يد أخي، وتحمل أمي بيدها الأخرى أخي الرضيع، خرجنا جميعاً لاكتشاف المجهول، ولمعرفة مصير بيتنا بعد خمسة أيام من القصف المتواصل، وكان أبو زهير ممسكا بيد زوجته التي تلبس ثوبا مطرزاً بألوان الأرض المغتصبة، كان أبو زهير مطرقاً لا يتكلم، ويسير جنبا إلى جنب مع زوجته، التي تمسك بيدها الأخرى زهيراً، و بدوره يمسك بيد أخته سهام، يسير أبو زهير وطربوشه الأحمر فوق رأسه وقد عرّاه من شاشته البيضاء، أنا لم أعرف لماذا عرّاه، ولكنه رجع إلى اللون الأحمر سلخه عن لون الشاشة البيضاء، ولما سألته قال إنه لم يعد يحب اللون الأبيض، فهو اللون المفضل عند من هرب من أرض المعركة . . . صحيح أنني لا أميز بين الألوان، لكن اللون الأبيض هو لون الذل والعار، هو لون الجبناء الانهزاميين، هو لون الضعفاء مسلوبي الإرادة . . . الذين هربوا رافعي الراية البيضاء فوق رؤوسهم ! ! !

أكمل مسيره مطرقاً رأسه كأنه يصغي لكل صوت، فهو خبير في تمييز الأصوات، لأول مرة في حياتي أراه متجهما وحزينا هكذا . . .

سرنا باتجاه بيتنا، كان يبتعد عنا كلما اقتربنا منه، طالت المسافة، قبل أن نصل إليه، كان وحيدا . . . ما زال في مكانه، تثرثر جدرانه بكل ما حصل في غيابنا، ثقوب بأشكال سريالية من أثر الرصاص، زجاج ينتشر على أرضيته الحجرية، نوافذه انتُزعت من مكانها انتزاعاً، بقية

باب يستند إلى حلق متهالك، لم نطل المكوث، تركنا البيت لم نأخذ بيدنا سوى تنكة زيت الزيتون، فقد قالت أمي: إنها مليئة ولا بد من أخذها معنا وهي كل ما نملك.

لم يستطع حملها إلا أبو زهير، خرجنا مشيعين البيت بنظرة طبعت في ذاكرتنا.

لم نعرف وجهتنا، لم تتفوه أمي بكلمة، لزمت الصمت . . . لكنها عندما خرجنا من الحارة قالت:

– ها هي قصتنا تتكرر يا بني، أخذت تعيد شريط ذكرياتها، رجعت إلى طفولتها عندما تركت بيتها مع من بقي على قيد الحياة من أبناء أسرتها في قرية زكريا، وبعد أن جاءهم خبر استشهاد والدها في معركة سكة الحديد في يافا في عام تسعة وثلاثين وتسع مئة وألف للميلاد على يد الإنجليزي المحتل، أخذت تقلب الأمور وتزنها بميزانها الخاص، تُرى أيكون مصيركم مثل مصيري؟

لقد تشردتْ وعاشتْ برد الشتاء القارس، وحر الصيف اللافح في خيمة تقاسمت عذابها، وبؤسها، مع أطفال في مثل سنها، وشيوخ دَفنوا أبناءهم، فتحجرت دموعهم في مآقيها، ونسوة جف حليب أثدائهن حزنا على أزواجهن الذين فُقدوا للأبد، أو استشهدوا، كانت آنذاك طفلة في الخامسة من عمرها، ولكنها تذكر تماما تلك المعاناة التي حُفرت في بؤرة ذاكرتها ونُقشت نقشا في مخيلتها، وها هي الأحداث

تعيد نفسها فتتكرر المعاناة ويزداد الألم بعد أن اتسع الجرح حتى لم يعد يلتئم. . .

٥

يعُجُّ تقاطع حوش الغزلان مع حوش الشاي بالحركة، يمضي الناس في كل اتجاه، لكنهم لا يتكلمون، لا يصرخون، يلعنون بصمت، ويتألمون بصمت، كنا كمن نام في مكان واستيقظ ليجد نفسه في مكان آخر مختلف كل الاختلاف، لا خطط نسير عليها مع شمس نهار لا يبدو كأي نهار مرّ علينا من قبل، يتحرك الرجال بصورة أوتوماتيكية، ترى أحدهم يدخل بيته ويخرج منه، ثم يدخل ويخرج بصورة لا إرادية، وآخر يخرج حاملاً أوعية نحاسية، أو فراشاً وأغطية، وامرأة تحمل بين أحضانها طفلين صغيرين، وعجوزاً تمشي بمعاونة حفيدها وقد زادت تشققات الشيخوخة على وجهها، كان مشهداً محيراً لم أرِ مثله من قبل، نساءً يبكين، ورجالاً فقدوا شهية رجولتهم، وأطفالاً صودرت طفولتهم، وصبيةً تائهين حائرين، وجدراناً اعتصرها الحزن، وقباباً تبتهل إلى السماء، وسماء حجب وجهها غبار ودخان وأدعية، أصوات انفجارات تكسر سكون الأمان، وقامات منحنية بأثقالها وهمومها وأحلامها المتهتكة، أطفالاً حفاةً ممسكين بأطراف ثوب أجهضته الأوساخ، وشيخاً يتكئ على عصاً كان قد قطعها في شبابه من شجرة بلوط تُركت وحيدة بعد نزوحه الأول من دير ياسين، وعيوناً تركت دموعها على جدران الأزقة وعتبات المنازل، لعناتٍ كالطوفان على من هرب يجر أذيال الذل والعار. . .

خرجنا من حوش الشاي عبر حوش الغزلان إلى باب السلسلة، الحوانيت مغلقة، أبو حليمة بائع الحلاوة السمسميّة غير موجود في

مكانه، لأول مرة هو غير موجود، مقهى باب السلسلة مغلق، لا دخان سجائر، لا أصوات لحجارة النرد ولا حجارة تطرق بنشوة الفوز بلعبة الطاولة، ولا قهقهات للشامتين على خسارة أحدهم، مشينا باتجاه المسجد الأقصى، الباب مغلق، عدنا مع العائدين أدراجهم، سرنا مع أثقالنا، وخوفنا، نحو خان السلطان، تجمع كثير من الناس في ساحة الخان، ولم يعد هناك حيز في غرفه الصغيرة، بعد أن تجمعت في كل غرفة من غرفه السفلية، أو غرفه العلوية، عائلات بكاملها، كان مخبز درجة الطابونة يوزع الخبز مجاناً، ناولنا أحد الرجال أربعة أرغفة، وعندما وصلنا إلى مفترق حارة الشرف وسوق الباشورة وسوق الخواجات، كان عدد كبير من الجنود متجمعين على مدخل حارة الشرف، يمنعون الناس من الدخول إلى الحارة، أصبح محل "أبو أيوب" خلف الجنود، لكن رائحة فلافله لم تغادر أنفي، وهي الآن تنفذ من بين أجسادهم التي تقف حائلا بيننا وبين مدخل الحي، ليت كل شيء ينتقل ويتحرك من مكانه كما تنفذ رائحة فلافل أبي أيوب، صرخ الجنود قائلين:

– ممنوع المرور من هنا، عليكم السير بذلك الاتجاه– مشيرا إلى سوق العطّارين– كان المنفذ الوحيد الذي نستطيع الولوج عبره، دخلنا سوق العطّارين، وسرنا فيه كالقطيع، نحن وكثير من الناس، حتى وصلنا إلى سوق خان الزيت، كانت رائحة التوابل هي إيّاها، تفصح عن نفسها تتسلل من خلف أبواب الحوانيت المغلقة، تصرخ معلنة عن رفضها الغرباء، تركنا طريق عقبة التكية لم ندخله، وسرنا عبر عقبة المفتي، ما زال بيت المفتي موجوداً في مكانه رغم مرور نكبات على وفاة الحاج أمين الحسيني، حجارة البيت في مكانها تشهد على خطط المفتي

الشاب، لكن مؤامراتهم وخيانات البعض أثبتت أنها أقوى من الأحلام والآمال الوردية، فجأة سقطت من يد أبي زهير صفيحة الزيت بعد أن نُزعت الحلقة المثبتة على سطحها فانسكب الزيت على الأرض، ليكتمل الألم. . .

في هذا الحي يتجمع التاريخ بكثافة، وتتعانق الآلام، يسميه البعض طريق الآلام، وأنا اليوم أنظر إليه هكذا، طريق الآلام، فمع كل خطوة من خطواتنا سار الألم مكشراً عن أنيابه، هنا سار السيد المسيح يحمل جراحه، وها نحن نسير على خطاه، نحمل آلامنا، وهنا أيضاً سار الحاج الجليل يحمل آماله المحطمة، وها نحن الآن نسير على نفس الطريق نحمل جراحنا وأحلامنا الممزقة، وكلما سرنا سار معنا العذاب، صرنا على موعد مع القهر، فجأة أصبحنا بلا مأوى، بلا بيت نركن إليه، أين سأضع جسدي إذا ما شعرت بالنعاس؟

أين أركن حقيبتي المدرسية؟

كيف أتقي لسعة برد الفجر؟

كيف أُطفىء ظمئي؟

لقد نسينا أخذ "طبلية" الطعام التي تجمعنا على العشاء كل ليلة!! فهل سنجتمع على العشاء من جديد؟

هل سيكونَ عشاءٌ بعد الآن!!!

ربما لدينا بعض طعام لهذا اليوم، ولكن. . . كادت تنزل دمعتي لولا أن والدتي طلبت مني الانتباه إلى أختي حتى لا نفقدها أيضاً بعد أن فقدنا أخي حليم، أخذ عقلي يصرخ بهذه الأسئلة التي أرعبتني، شعرت بالخوف يدب في بدني، نهشني القلق عندما لم أجد إجابة عن

أسئلتي، ما زلنا نسير على غير هدى خلف أبي زهير، كان لا يزال عابساً، لا يتكلم، يجرنا خلفه كتلا يمزقها القلق، ألسنتنا صامتة، وقلوبنا تتحرك متثاقلة، وعقولنا تثرثر بأفكار متضاربة، وعيوننا لا تميز الألوان، وبصيرة شيخنا أصابها العقم بعد سقوط صفيحة الزيت من يده . . .

وقف متثاقلاً أمام بوابة خشبية بنية اللون دَفَعَ إحدى دفتيها التي كانت مفتوحة، والأخرى مثبتة بقضيب حديدي من الداخل، المكان ليس ببعيد عن منزل المفتي، دلفنا عبر ممر معتم تسكنه الرطوبة بكل تفاصيلها، يؤدي إلى دهليز طويل ينتهي إلى ساحة على طرفها سلم حجري، على جانبيه غرفتان، في سقف الغرفة التي على يسارنا ثقب بفعل قذيفة، قطره قرابة المتر ونصف المتر، صعدنا الدرج الذي ينتهي إلى غرفة كبيرة، واسعة، على جانبها مطبخ مفصول بباب صغير، أصبحت هذه الغرفة منزلنا المشترك مع عائلة أبي زهير، بعد أن قسمناها إلى قسمين متساويين بواسطة ستارة من القماش وبطانيات وجدناها في المكان، كما تقاسمنا الألم، والدموع، والهواء، والنبض، والدعاء، كانت تجمعنا الكلمة، والغذاء، ونشرات أخبار مذياع أبي زهير الذي لا يتركه أبداً، حتى عند ذهابه إلى المرحاض، لعل وعسى يحمل له خبراً ساراً يعيد له منزله . . .

قضينا أيامنا الأولى في وجوم تام، لا كلام، لا عتاب، لا سؤال، وجوه تتحرك باتجاه المجهول، أفكار ضبابية عجز الكلام عن الكلام، غرقنا في يم الذهول وهاوية الصدمة، ومتاهات البؤس، عقدت الألسن وجفت الحناجر، وخلا الرأس من أحلامه التي تركت على

وسادة لم يكن بالإمكان حملها حين تركنا منزلنا وحيدا يصارع مقاصل الجلاد . . .

حياتنا ليست حياةً، ليست كما تعودنا عليها من قبل، إننا نعيش مع أسرة ثانية بغرفة واحدة تتقاطع آلامنا، ورغباتنا، وأحلامنا، وصبرنا، وأهواؤنا . . . نتقاسم كل شيء طعامنا وآمالنا، وإصرارنا، وادخاراتنا، وفقرنا، واحتياجاتنا . . .

بعد يومين من انتقالنا، عاد أبي في حالة يرثى لها، رأيته هزيلا، ملابسه رثة، وسخة، علامات العرق واضحة على قميصه، كانت حالته تعرب عما لقيه من معاناة فترة غيابه، أبي رجل في الخمسين من عمره، قامته متوسطة، وشعره أبيض كبياض الثلج، هو متحدث بارع، لديه العديد من الأصدقاء، ولكنه يأنس كثيرا بإخوته وأخواته، ربما لأنه تربى في مدرسة داخلية لفاقدي البصر، ولذلك فقد حاول النزوح إلى عمان، ليكون مع جدتي وأعمامي. . . لكنه الآن عاد إلينا هو وبصيرته التي يعتمد عليها، وهذا هو المهم، أنا تنفست الصعداء عندما دخل علينا ومن خلفه عمتي، لقد عادا مع بعض الناس قبل أن يجتازا نهر الأردن. . .

كان هناك كثير من الجثث لأناس كانوا قبل أيام قليلة يتحركون ويحلمون مثلنا، قال أبي:

– كنا نسير بين الجثث، رائحة الموت سيطرت على كل شيء، الهواء والسماء والشجر، قتلت كل الأحاسيس، قتلت الخوف أيضا، لم يعد لدينا قدرة على المضي بسبب عائق أو جثة ملقاة على قارعة الطريق، فينزل بعض الركاب لفتح الطريق أمامنا، كانت الجثث بكل الألوان، منها ما هو متفحم، ومنها ما هو أزرق، ومنها ما هو دون لون أو حتى رائحة، نزلنا من الحافلة المكتظة بالناس، نساء ورجالا وأطفالا وشيوخا و عجائز، نزلنا قبل أن نصل إلى جسر نهر الأردن الخشبي بعشرات الأمتار، فقد وقف سائق الحافلة وهو رجل طاعن في السن، نحيف

الجسم لدرجة بروز عروق يديه، وفي صوته بحة من فعل السجائر التي يدخنها بشراهة، وقف قائلا:

- نحن أمام الجسر الخشبي، والطريق باتجاه واحد، فمن يقطع الجسر الخشبي، لن يكون باستطاعته العودة...

كانت كلمات السائق بمثابة الطلقة التي أصابت ضمائرنا، واستقرت في أفئدتنا... ماذا أفعل هنا ؟ ولماذا تركت أسرتي تصارع المجهول؟ كم أنا أناني!!!

ما كان لي أن أتصرف هكذا!

بدأ القلق والندم يتسابقان على تحطيم نفسي، وأخذت الوساوس تنهش عظامي، ولم يكن أمامي إلا العودة مهما كانت النتيجة، فكلام أم حكيم صحيح، " الموت على تراب هذه الأرض أشرف من الحياة بذل الغربة وحرقة الندم"...

قالت أختي:

- أسمعت ما قاله السائق العجوز؟

- نعم، وعلينا العودة فورا...

أيقنت أنها لحظة الحسم، فإما أن نستمر بالسير نحو عمان، وبذلك لا ندري ماذا يحل بنا وبكم، خاصة بعد تأكدي أنكم لم تلحقوا بنا، وإما أن نعود أدراجنا قبل فوات الأوان، فكان قرارنا أن نترك الحافلة، ونزل آخرون مثلنا، عدنا أدراجنا، ولكن ليس بالسهولة نفسها، كان علينا السير على الأقدام، تلمسنا خطواتنا بين الجثث، وأجزاء الآليات المدمرة، والطائرات تحوم فوق رؤوسنا على مستويات منخفضة، كانت الطائرات تقذف كل سيارة أو آلية تتحرك باتجاه القدس، أدركنا ولو

متأخراً أن طريق عودتنا إلى القدس محفوفة بالمخاطر الكبيرة، انتظرنا حتى يعم الظلام، فالسير ليلا أكثر أماناً، كنا متعبين لدرجة الإرهاق، جلسنا بجانب صخرة على حافة الشارع، وما كاد الظلام يبتلع المكان حتى سمعنا صوتا قادماً باتجاهنا، أدركنا أنه صوت جرار يسير دون إنارة، كان محملا بالكثير من الناس، ركبنا على غطاء دولابه الخلفي، إذ لم يكن متوفرا غير هذه المساحة للجلوس عليها، أو نكمل طريقنا سيرا على الأقدام، أشار لنا الركاب إلى أن نلتزم الصمت، حتى نسمع صوت الطائرات عندما تقترب من المكان فيطفئ سائق الجرار المحرك، وهكذا استمر الأمر إلى أن وصلنا مشارف العيزرية . . .

كانت جموع الناس بالعيزرية تتزايد، وكان الناس يتوجهون بأنظارهم نحو الشرق، باتجاه القادمين من عمان وأريحا، وعندما وصلنا أخذت الأسئلة تنهال علينا كالحمم البركانية، الكل يريد ان يعرف مصير أقاربه، كانت الطريق خلفنا خالية تماما، فالعودة باتجاه القدس شبه مستحيلة، لأن كل ما يتحرك كان مستهدفا لطائرات العدو، فقط الطريق متاحة لمن يغادر باتجاه الشرق، خارج حدود الوطن، لقد كنا محظوظين بكل معنى الكلمة، ولو تأخرنا قليلا، لما استطعنا العودة، انتقلنا إلى باب العامود مرورا بباب الأسباط الذي كان مغلقا، وسرنا عبر المقبرة اليوسفية، جنبا إلى جنب مع السور، حتى وصلنا باب الساهرة، كان باب الساهرة مفتوحا قدر مرور شخص واحد من خلاله، فقد علمنا ان احد المجاهدين قد استشهد قبل ساعات من وصولنا وما زالت جثته ملقاة فوق سور باب الساهرة، كانت الحركة بطيئة جدا في تلك المنطقة، ولذلك اخذنا نحث الخطى حتى وصلنا إلى

باب العامود، وهناك اختلف الأمر عن بقية الأبواب، إذ ان الحركة أكثر نشاطا وفاعلية، مررنا عبر البوابة الضخمة، التي كانت دفتها اليسرى مفتوحة فقط، سرنا من جهة مسجد الشوربجي، باتجاه شارع الواد، حتى وصلناكم . . .

كنت قد انقطعت عن مدرستي منذ وقعت الحرب كان علي البحث عن عمل، أطلعت أمي على رغبتي في العمل، لم توافقني على طلبي، إلا إنني أقنعتها بعد أن أكدت لها بأن المدرسة مغلقة، ويجب عليّ العمل، حتى نحصل على ما نسد به رمقنا، فالنقود القليلة التي

كانت بحوزة أبي لم يعد لها وجود، كما انه لا يوجد أي نقود لدى العم أبي زهير؛ ولذلك لا بد من البحث عن عمل، لم يكن بالأمر الهين إقناع والدتي بهذه الرغبة، إلا إنها أذعنت لإرادتي في نهاية الأمر وناولتني عشرة قروش قائلة:

- هذا ما أستطيع إعطاءك من نقود.

توجهت من فوري إلى سوق خان الزيت ودخلت إلى أحد المحال التجارية، كان يجلس في صدر الدكان رجل يرتدي القمباز والكوفية وخطوط شيخوخة رسمت على وجهه، قلت له إنني أريد علبة علكة " شعراوي " كي أبيعها لأربح بعض النقود، نظر إليّ نظرة لم أفهم مغزاها آنذاك، وابتسم دون أن يقول كلمة، ثم ناولني علبة العلكة، فناولته العشرة قروش، نظر إلي قائلا:

- هذا لا يكفي، فثمن العلبة عشرون قرشاً، أطرقت صامتاً وهممت بالخروج، فقال لي:

- اسمع يا بني، أنا أعطيك العلبة، ويبقى من ثمنها عشرة قروش دين عليك، فإذا انتهيت من بيعها، تدفع لي الباقي.

انفرجت أساريري عندما سمعته يقول ذلك، تناولت العلبة بكلتا

يدي، أردت احتضانها، وانطلقت نحو باب العامود. . .

لم يمض نصف نهار حتى بعتها، رجعت سريعاً إلى الرجل الطيب لأعيد ما عليّ من دين، واشتريت علبة أخرى بعد أن دفعت كامل ثمنها. . .

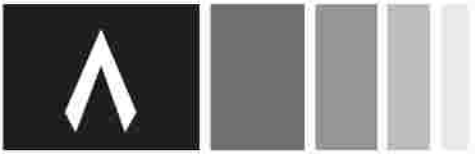

مرت سنة، وأنا على هذه الحال؛ بيع وشراء، ودموع وحزن، ونظرة غيرة للأولاد وهم في طريقهم إلى المدرسة، كنت احسدهم على ذلك، كنت أحسد مصطفى ابن خالي، عندما حضر مع أبيه لزيارتنا، كانت الزيارة الأولى له بعد الحرب، سرّت أمي كثيراً بملاقاة أخيها الوحيد، في هذه الديار، تحدثت مع مصطفى عن عملي وتجارتي، أما هو، فقد حدثني عن دراسته، وأنه حصل على المرتبة الأولى في صفه، ما زاد من حزني على نفسي، لم تغادرني الرغبة في التعليم لحظة واحدة، رغبت كثيراً في الدراسة وكانت رغبتي تزداد يوماً بعد يوم، حتى إنني كنت احلم بالمدرسة أثناء نومي ويقظتي.

فُتحت المدرسة من جديد، بعد انتهاء العطلة الصيفية، فوجدتني أذهب من فوري إلى المدرسة العمرية في البلدة القديمة في القدس الشريف، دخلت إلى غرفة المدير، قلت له إنني أريد أن أتعلم، نظر نحوي من تحت نظارته الطبية متفحصاً ثم طلب مني الانتظار خارج الغرفة، لم يطل انتظاري حتى جاءني أحد المعلمين، كان شيخاً مسناً، يضع على رأسه عمامة بيضاء عريضة، ويلبس قفطاناً أسود، ونظارة طبية، رأيت في وجهه علامات الطيبة والسماحة، فاطمأن له قلبي، وأنست به، له لحية بيضاء خفيفة، تقاسيم وجهه دقيقة، كان الشيخ ياسين، نحيفا لدرجة أن نحافته كانت تزيد قامته طولا، سألني المعلم الشيخ بلهجته المتفحصة الحنونة:

- أي صف أنهيت؟

قلت له :

– الصف الثالث– ولكن في حقيقة الأمر فإنني لم ادخل الصف الثالث مطلقا–

فقال لي :

– هل معك شهادة؟

قلت :

– لا ، لقد تركناها في البيت .

– اذهب وأحضرها .

– هدمه اليهود .

تناول الشيخ كتاب المطالعة ، وفتح على نص من النصوص ، وطلب مني قراءته . . .

كم كانت سعادتي حين قُبلت في الصف الرابع ، حملت فرحتي ونقودي التي ربحتها من تجارتي ، وذهبت من فوري إلى أمي ، ناولتها النقود ثم قلت لها : – خمني ماذا أحمل لك من أخبار .

ابتسمت قائلة :

– أُخمن ماذا؟

– خمني .

– لا اعرف .

– لقد التحقت بالمدرسة ، وأنا الآن في الصف الرابع . . .

وأول ما أُقابل مصطفى سأخبره بأنني صرت بنفس صفه .

طارت أمي فرحاً ، لدرجة أن دموعها سالت على خديها فلم اعد أميز بين دموع الضحك ودموع البكاء ، لم أرَ حالة السعادة تلك على

محياها منذ مدة طويلة، فقد تاهت منها الضحكات، بعد أن فقدنا الأمل والأمان، حتى خيل إلينا أن جميع أبواب الفرح والطمأنينة، قد صودرت من حياتنا إلى الأبد، ولم أدرك أن فرحة التعليم والنجاح عند أمي لا توازيها فرحة، كنت سعيدا لأنني استطعت تلبية رغبتها . . .

٩

أنا الآن مثلهم في كل شيء، في الحلم، في الشكل، في المتعة، أخذتُ أبحث عن الأولاد الذين يتعلمون في نفس مدرستي ممن يسكنون حارتي، كونت صداقات جديدة، شعرت حينها أن طفولتي رجعت لي من جديد، بعد أن كدت أفقد الأمل برجوعها، كنا نتبادل الأحلام، نتوجه إلى المدرسة معا، نتشارك في الأحاديث، فكنت أكثرهم دراية وعلما بما يدور من حولنا بحكم عملي في التجارة، حيث أسمع الكبار يتحدثون هنا وهناك عن فلسطين، وعن جمال عبد الناصر، وعن الفدائيين، وعن الذين تركوا فلسطين إلى الأردن، وكيف يعودون عبر مياه نهر الأردن، فمنهم من يموت غرقاً، ومنهم من يموت برصاص اليهود ومنهم من ينتزع حياته لغم زرعه مجرم، ومنهم من يموت حسرة. . .

اعتبرني أصحابي خبيراً في أمور الكبار؛ لأنني كثيراً ما أجالسهم وأستمع إلى أحاديثهم في السياسة والحرب والاحتلال وأخبار الناس.

انتقلنا للسكن في منزل في حارة السعدية، كان لا يبعد كثيرا عن باب الساهرة، يطل على قبة الصخرة من جهتها الشمالية، أما أبو زهير فقد استطاع الاتصال بعائلته في بيت صفافا، فابتسم له الحظ لأول مرة، لقد كانت الحرب نقمة على الناس والشجر والحجر والطير والماء والسماء والأرض؛ كانت نقمة على كل شيء إلا على أبي زهير فقد كانت نعمة ورخاءً، تعرف على أبناء أسرته الذين احتضنوه وقدموا له

جزءاً من أرض والده التي غادرها في سنوات النكبة الأولى عام ثمانية وأربعين، كان أبو زهير أيامها في عز الشباب ولكن والده توفي بعد عام واحد من مغادرته القرية آنذاك. . . وعندما غادرنا أبو زهير إلى بيته الجديد في بيت صفافا، ترك لنا مذياعه مفتوحاً على نشرة أخبار صوت العرب. . .

١٠

حصل أبي على آلة طباعة "بريل" من مكتبة المكفوفين بالقدس، واتفق معهم على تحويل الكتب العادية إلى لغة "بريل" مقابل أجرة زهيدة.

كنت اقرأ الكتب لوالدي الذي كان يطبعها بخط "بريل" فقرأت له الكثير الكثير من الكتب، في السياسة والدين والاقتصاد، ومن أهم ما قرأت له ؛ القرآن الكريم، والعديد من الروايات العربية؛ أولاد حارتنا وزقاق المدق، لنجيب محفوظ، والنداهة وملك القطن، وقاع المدينة، وحادثة شرف ليوسف ادريس، والبؤساء، لفكتور هيجو، أنا كرنينا لتولستوي، الجريمة والعقاب لديستوفسكي والشيخ والبحر لأرنست همنجواي. . .

كنت أقرأ بدقة متناهية؛ أذكر له علامات الترقيم، ويا ويلي إذا أخطأت، أو لم أذكر له فاصلة أو نقطة أو علامة تعجب، كان يجن جنونه، وعندما كنت أمر على كلمة غريبة وأقف عندها لكي أتأكد من لفظها؛ كان يقول لي "هجئها" فأبدأ بتهجئتها قائلاً:

- " ت ي وج ي ن " فأصف الحرف الأول "تْ" فيقول:

لا تقل "تْ" بل قل " "تَ" . فأقول له :

لا يوجد "ا" خلفها . . .

كانت رواية "أنّا كرنينا" صعبة، كلماتها معقدة، كنت أقرأ له منها هكذا:

- "داش، أوه علامة تعجب نحن فلاحون مع فلاحين نقطة بنفس السطر ونحن نراقب أنفسنا نقطة بنفس السطر فمن لم يعمل جيداً يطرد نقطة بنفس السطر وأولادي يكفونني العمل نقطة سطر جديد داش افتح قوسين صغار تيوجين سكر الأقواس يطلب قراناً يا أبي نقطة سطر جديد"، هكذا كانت قراءتي له، لم تكن ممتعة على الإطلاق، ولذلك كنت أتهرب من هذه المهمة ما استطعت، وعندما أفلت كان يستعين "بخولة" بنت الجيران.

كنت أطرح عليه الكثير من الأسئلة أثناء القراءة، فكان يجيبني عنها في أغلب الأحيان، وعندما لا تكون عنده إجابة عن سؤال؛ فإنه يغضب، ويصرخ في وجهي قائلاً:

- "اقرأ فقط، ولا تسأل حتى ننهي القراءة" . . .

في إحدى المرات سألته عن الموت، وكيف يموت الشخص، وهل الموت يؤلم أم لا؟ فقال لي يومها:

- "الموت لا يؤلم من يموت، ولكنه يؤلم من هم على قيد الحياة، فعندما يموت الشخص، يحدث معه مثلما يحدث مع الذي ينام، فالموت مثل النوم، ولكن الموت يختلف عن النوم في شيء واحد؛ وهو أننا عندما ننام نستيقظ صباح اليوم التالي في كامل نشاطنا، لنبدأ الحياة من جديد، أما عند الموت فلا أحد يعود للحياة الدنيا.

كنت أقرأ له كل يوم ساعتين أو ثلاثاً، وكانت بنت الجيران تقرأ له أيضاً، كان يصحح أخطائي الكثيرة في القراءة، وكنت بطيئاً جداً، كان ينزعج كثيرا من بطئي في القراءة، أما عندما كانت "خولة" تقرأ له كانا ينجزان الكثير، فهو لذلك يفضل قراءتها على قراءتي، وهي أيضا لا تكثر من الأسئلة بل إنها لا تسأل بتاتاً، فكان يقول لي :

- تعلم "الأدب" من خولة . . .

كان الوقت المفضل للقراءة ما بين العصر والمغرب، ويا ويله من يصدر صوتا مزعجا أثناء العمل كان يجلده "بالخيزرانة"، فعند القراءة لا أحد يتكلم أو يصدر صوتا، أو يقطعنا عن القراءة، كنا نعلن حالة الطوارئ القصوى، كان والدي يصغي جيدا إلى كل كلمة أقرأها، فكان يطلب مني إعادة القراءة مرة ومرتين، أو أكثر، إذا كانت قراءتي لا تناسب السياق، كنت أفضل قراءة القصص والروايات، على قراءة الكتب الأخرى، فعندما قرأت له "ألف ليلة وليلة" كنت أنتظر موعد القراءة لحظة بلحظة، وكنت لا أحب الانتهاء من القراءة آنذاك، فكنت أقول له عندما يقول كفى لهذا اليوم :

- دعنا نقرأ المزيد، حتى نصل نهاية الحكاية، فكان في قرارة نفسه يضحك مني، ويقول :

- لا بأس من قراءة صفحة أخرى . . .

لدى والدي إحساس عميق وشفاف بالكلمة، يستطيع اقتناص الأخطاء اقتناصاً، فكان يطلب مني إعادة القراءة قبل صفحة أو صفحتين أو أكثر في بعض الأحيان، عندما يجد أن هناك خللاً ما بين الجمل، فكان غالباً على صواب، أكون أنا قد تخطيت في القراءة فقرة

أو سطراً أو كلمة، فيقول لي :

– اقرأ من الكلمة كذا، أو من أول الفقرة كذا . . .

هي فترة مرت في حياتنا، كانت ممتعة جدا، تحسنت أوضاعنا الاقتصادية بشكل مقبول نسبيا، وخاصة بعد أن صرنا نتسلم حصتنا من "المؤن" فقد كان الطحين والسردين والسمنة والأرز والعدس وعلب اللحمة والحليب تكفي احتياجاتنا حتى كيس الطحين الفارغ الذي يحمل اسم وكالة الغوث باللغات المختلفة كانت والدتي ترسله إلى جارتنا لصنع ملابسنا الداخلية منه، صرت أقضي كثيراً من الوقت مع أصدقائي من أولاد الحارة، كنا ندرس معا ونذهب إلى مكتبة العمرية في ساعات بعد الظهر، نتبادل الكتب والقصص، وخاصة كتب الألغاز البوليسية . . .

صرنا جزءاً أساسياً من الحارة، تشابكت علاقتنا مع الجيران صارت علاقة وطيدة، نتبادل الزيارات معهم، نتسامر ونتحادث، وأحيانا نغني . . . فقد كان لجارنا علي، عود، يعزف ويلحن ويغني، وهذا اكتشف أن لوالدي صوتاً جميلاً، فأخذ يلحن القصائد ووالدي يغنيها، فكان يقتنص والدي أيام الخميس ليرجوه غناء لحن قد لحنه، ومع كل فقرة يغنيها أبي يحلق علي معه طربا لدرجة كان يتمايل مع النغم بصورة كنت أضحك عليها من صميم قلبي . . .

لكنني حزنت كثيرا عندما غادر علي إلى إحدى الدول الأوروبية لدراسة الموسيقا، فلم نعد نتسامر بنفس الطريقة التي عهدناها معه أيام الخميس . . .

لم يزل أثر الحرب واضحاً على البيوت والمساجد والأولياء والمدارس، فقد أتت الحرب على جزء كبير من مدرسة القادسية، كان نصفها مهدماً والنصف الآخر ما زال صامداً، كانت مهجورة تماماً عندما دخلناها أنا وأولاد الحارة، أخذنا نبحث عما يشبع فضولنا ويحقق لنا شيئا من المتعة، حلمنا بإيجاد أقلام أو ألوان أو دفاتر أو أوراق أو أي شيء ذي قيمة، وجد أحدنا خارطة سياسية للوطن العربي، كان سعيداً جدا بها، فقرر أخذها رغم ألوانها المتهالكة، وأطرافها المتآكلة وحروفها المشوهة، أما أنا فقد قررت الاستمرار في البحث، فأخذت بإزالة الركام والأتربة على أمل الحصول على شيء مفيد، حتى وجدت ما أثار فضولي وضاعف حماستي، كان مدفونا تحت التراب ولم يظهر منه إلا طرفه، أخذت أزيل عنه التراب تارة وأسحبه تارة أخرى، كان العرق يسيل من رأسي، وأخذ قلبي يزداد خفقانا، ودارت في رأسي الأحلام، وارتسمت على هامتي مراسم الكبرياء والأنفة. . .

أخيرا استطعت إخراجه، طويته وخبأته تحت قميصي، وتركت المكان مسرعا إلى البيت، دخلت غرفتي أغلقت بابها خلفي. . . فرشته فوق السرير، كان علماً أردنيا، أخذت أزيل النجمة السباعية البيضاء التي تتوسط اللون الأحمر حتى حررته للمرة الثانية هذا اليوم. ابتسمت وأنا أنظر إليه فخيّل إلي انه يريد عناقي فابتسمت له ابتسامة عريضة، غسلته من آثار الماضي، ثم وضعته داخل كيس من النايلون وأودعته المزراب.

بعد مدة قصيرة آليت أن أبدل مكانه، فالشتاء على الأبواب، وأسكنته تحت فرشة سريري بعد أن وضعت تحته حِراماً من الصوف كانت أمي قد نسجته من بقايا الكنزات القديمة، لتدفئ أختي الصغيرة في ليالي القدس الباردة.

١٢

تعودت على توزيع وقتي بين العمل والدراسة، أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن أحدهما، برمجت حياتي على هذا المنوال، كنت تاجرا، ودليلاً سياحيا، ونادلا في فندق، أدركت أن الصراع قائم بين البشر والزمن منذ الأزل، وان صراعي مع هذا الزمن هو صراع إرادة، وعزيمة.

كانت لي رغبة قوية في إكمال تحصيلي العلمي في إيطاليا، حصلت على التأشيرة والقبول من إحدى جامعات ميلانو، واشتريت تذاكر السفر وتهيأت للسفر في الموعد المقرر لذلك، وهو بعد أسبوع واحد، كنت بانتظار لحظة السفر، كان علي السفر من مطار عمان الدولي، ولذلك فقد سافرت إلى الأردن قبل يومين من موعد إقلاع الطائرة، وهناك في عمان وعندما ركنت إلى نفسي أخذت الأفكار تتقاذفني في كل اتجاه، تارة تأخذني باتجاه السفر وتكملة المشوار الذي بدأته، وتارة تقيدني بمسؤولياتي تجاه عائلتي، كان الوقت يمضي وحيرتي تزداد تعقيدا حتى حانت لحظة الصفر، تلك اللحظة التي لا مجال فيها للتردد، فإما أن أسافر أو لا أسافر، كانت حقيبة السفر والجواز، وتذكرة الطائرة، وعنوان الجامعة والسكن، تنتظر قراري النهائي بفارغ الصبر، قالت لي أمي قبل مغادرتي القدس:

- أنت حُر يا بني، اذهب أنّى شئت ما دامت هذه هي رغبتك، لم تعارض قراري، ولم تشعرني بالضعف، إلا أنني كلما تذكرت كلماتها ونبرة صوتها كان ينتابني الكثير من القلق المؤلم للنفس، بحيث ازداد

عندي الشعور بإعادة النظر في قراري بالسفر وترك العائلة التي تحتاجني، وعندما حانت اللحظة، أخذت حقيبتي، وجواز سفري، وأوراقي، ومعطفي الأزرق، الذي يواسيني في ليالي الشتاء الباردة، لم أكد أخرج من باب غرفتي حتى عدلت عن السفر بشكل قاطع ونهائي، بالطبع هذا أمر غريب، ولكن هذا أنا، بلحظة واحدة آخذ القرار ولا أتراجع عنه، كان حلمي أصغر من أن أضحي بسعادة والدتي، فأنا عيناها اللتان ترى بهما، أنا يدها اليمنى، ومظلة الأمان التي تطمئن لها.

التحقت بالجامعة الأردنية في عمان، وعملت على هامش دراستي، نادلاً بأحد فنادق المدينة التي كان يملكها أحد الضباط المتقاعدين، كنت أسمعهم ينادونه "الباشا" أما أنا فلم أدعُهُ بهذا اللقب أبداً فقد كنت أقدم له قهوة بعد الظهر بكل أدب واحترام دون دعوته بـ"الباشا" بل كنت أقول له تفضل دون أية إضافة، كان وجهه شديد الاحمرار، وبنيته متوسطة ومتناسقة، ملابسه أنيقة ومختارة بعناية تدل على ذوق رفيع، كان مدخنا شرها، يجلس في صالة الفندق كل يوم ما بين الساعة الثالثة والسابعة مساءً، ولا يبدل مقعده بتاتاً، ويلبس بيده اليسرى خاتما من الذهب يلمع كالشمس، عليه حجر من الماس الأزرق، كان يجلس واضعا رجله اليمنى فوق اليسرى، وكان يأتيه كل يوم زائر أو اثنان لا أكثر، يتبادلون أحاديثهم برصانة ووقار، لقد أعجبت بشخصية هذا الرجل وكياسته، ولكنني لم أحدثه بكلمة طيلة فترة عملي قبل أن أفصل منه... فقد جاءني قرار الفصل من مدير الفندق، صباح ليلة قضيتها في الغرفة رقم (16) مع فتاة من نزلاء الفندق، كانت فتاة لم أقابل

أجمل منها في حياتي، قامتها ليست طويلة، وبنيتها ضئيلة، وهيئتها مثل تمثال من المرمر، آية من الجمال، نُحت بيد فنان ايطالي من فناني القرن السادس عشر، شعرها أحمر كالياقوت، في عينيها سحر آسر، صدرها قد استكمل استدارته كقبتين من النحاس المصقول، شفتاها ورديتان برائحة المسك والعنبر، عيناها واسعتان بلون سواد الليل، تعانقت عيوننا والتحم جسدانا التحاماً كأن الشاطئ بالشاطئ اصطدم، وغرقنا في نشوة ألهبت كل ما حولنا، غطاء السرير، وسادة تقاسمناها، اختل توازن مرآتها، تناثرت الأوراق والأسماء، والمساحات ضاقت، لم يعد هناك لغة غير لغة الجسد، تفوقت الطبيعة على كل القيم، جفت الكلمات فلم يكسر سكون الليل إلا صوت نشوتنا وثرثرة القبل التي تبعثرت على مساحات الجسد، وآهات تذيب الصخر، غرزت أناملها الطرية في جسدي وهي تشدني إليها حرصا على نشوتها، أخذ جسدها يثور، يتحفز لجولة أخرى، تدحرجت من طرف عينها اليسرى دمعة، احتضنتني بكل حنان وهي تقبلني، وتلثم شفتي ووجهي وعنقي، أغمضت عينيها وغابت في نوم عميق وبسمة رُسمت على محياها الجميل الغض الذي كانت تفيض منه رائحة اللوز.

نزلت من غرفتها قبل موعد الإفطار بنصف ساعة تقريبا ظناً مني بأن لا أحد في بهو الفندق، غير أن ظني لم يكن في محله، إذ أنَّ مدير الاستقبال في الفندق كان ينتظرني بجانب المصعد، فقال لي دون مقدمات:

- اجمع أغراضك وغادر الفندق، لقد تم فصلك من العمل، لم

أجادله، تركت الفندق من فوري، وذهبت إلى جامعتي ولكن طيفها لم يغادرني لحظة واحدة، فقد قالت لي إنها مسافرة إلى " نيو يورك" صباح هذا اليوم فلم يتسن لي وداعها، وكنت قد نسيت قصاصة الورق التي دونت عليها عنوانها، فقطعت عني أخبارها.

ليلة واحدة، وسرير، ونشوة حمراء، وبعض حديث، وآهات ليست بتلك البراءة، وحبات عرق امتزجت مع شهوة طرية، وقُبَل بطعم الشهد، لم تزل آثارها فوق مساحات الروح، لم يودعها جسدي ولا فكري ولا أصابع يدي، قلت ربما ألتقي بها يوما هنا أوهناك، في البعيد البعيد، هي امرأة ليست كباقي النساء، مرت علي كنسمة، فراشة حطت على كتفي فشيدت قصورها في أوعيتي، ملاك قطف زهرتي وغادر، لكنها لم تغادر ذاكرتي مهما تنقلت في أسفاري، ومهما تثاءبت أحلامي.

لم يغادرني طيفها، بعد أن سكنت قلبي وعقلي، حاولت البحث عنها، كانت قد حدثتني عن عائلتها في مدينة القدس، ولكنني نسيت اسم العائلة، كنت هائماً لدرجة الذوبان وأنا بين أحضانها، عندما حدثتني عن عائلتها في القدس، فلم أحفظ الاسم، ولكنني عرفت أنها من بيت حنينا، وأن جدها قد استقر في القدس بعد عودته من أمريكا، أما والداها فهما في نيويورك، وهي تدرس في المدرسة الثانوية هناك، لقد أيقنت بأنني من يبدأ المراسلة، وبذلك تحصل على عنواني، أظن أن إرادة القدر هي التي تتحكم فينا هنا، لأفقدها مرة واحدة وإلى الأبد،

ولكن شعوري لم يستسلم إلى هذه النهاية المؤلمة، هناك في ركن ما في قلبي يحدثني بأنني سأقابلها يوما ما . . .

١٣

تركز اهتمامي بعد أن فقدت حبي الأول على الدراسة، والبحث عن عمل آخر، لم يكن من السهل بمكان إيجاد عمل يتوافق مع دوامي في الجامعة، بحثت في كل فنادق منطقة الشميساني، وجبل عمان، فلم أجد غير الوعود والانتظار، ضاقت بي الدنيا على اتساعها، ونضبت بقية مدخراتي، وصرت أتناول وجبة واحدة من الفول أو الحمص في اليوم عند مطعم هاشم في عمّان، فقررت العودة إلى مكان عملي السابق، في فندق الوردة الحمراء، ربما إذا تحدثت مع الباشا الذي أكن له الاحترام أن يعطيني فرصة ثانية، وعلى هذا عزمت أمري، وتوجهت في الساعة التي يكون فيها الباشا موجودا في الفندق، فقد حفظت مواعيده.

كان يوم الأربعاء، عندما دخلت بهو الفندق متوجها نحو الباشا الذي كان جالسا في مكانه المعتاد، وكان يهم بإشعال سيجارة جديدة، سلمت عليه، فابتسم لي ابتسامة بثت الطمأنينة في قلبي، ثم بادرته قائلا:

- أنا أحب هذا المكان فهو مثل بيتي الذي أقدسه، فأرجو أن تسمح لي بالعودة إلى العمل، وأن أخذ فرصة ثانية في إثبات إخلاصي وانتمائي لهذا المكان الذي أحبه وأحترم كل من فيه.

قال الباشا بلغته ولهجته الرصينة المعتادة:

- أما زلت طالبا في الجامعة؟

– نعم، وأنا الآن على أبواب الانتهاء من السنة الثالثة.
– اذهب إلى أبي إبراهيم و "استسمحه"، فهو طيب القلب، وبعد ذلك أحضر لي فنجانا من القهوة.

لم تسعني الدنيا عندما تسلمت عملي من جديد، أردت أن أحتضن كل شيء الباشا وأبو إبراهيم، وسرير غرفتي في الفندق، وملابس العمل، قميصي الأبيض و "البابيونة" وطاولات السفرة وحتى الدخان المنبعث من سيجارة الباشا، ورائحة القهوة، وورود الزينة، والرائحة المنبعثة من المطبخ.

عُيِّنْتُ في "الكوفي شوب" الموجود في بهو الفندق، وهنا كان شرفاً لي خدمة هذا الإنسان العظيم، الذي زاد احترامه في قلبي أضعافا مضاعفة، كان لي كقارب نجاة نشلني من بين أمواج البحر المتلاطمة، لن أنسى له هذا الموقف، إذ لولاه لكنت في وضع لا يعرف عواقبه إلا الله، كنت سأفقد كل شيء؛ دراستي التي تركت القدس من أجلها، ومستقبلي الذي بنت عليه عائلتي كل آمالها.

كما أنني أشعر بأنفاسها تداعبني وتحيط بي في كل ركن من أركان الفندق، هنا كانت جالسة أول مرة، وهنا تناولت البوظة، وهناك جلست بين صديقاتها وأنظارها تثرثر مع نبضات قلبي، وفي هذا المصعد تجولت عبر طوابق الفندق، عشقت الغرفة (16)، التي شاركتني آهاتها ونشوتها وحبات عرقها، وابتسامة حيائها، هذا المكان هو مصدر حبي،

وأماني، وسلوتي.

بقيت في عملي هذا حتى انتهيت من دراستي، فلم أقطع صلتي به.

١٤

أرادت والدتي تزويجي من ابنة عمتي التي أحبتها من كل قلبها، ووسطت خالي "ابو مصطفى" وزوجته لإقناعي برغبتها هذه، كنت أحب خالي واحترمه كثيرا، وأخجل من ان أرفض له طلبا مهما كان، خالي رجل عصامي، كادح يعمل بقوت يومه . . .

وأنا اعتبره بصورة ما مَثلي الأعلى في الطيبة والاعتماد على النفس والعصامية، كما أنني أرغب في إسعاد أمي إذا كان زواجي بمن اختارتها لي سعادتها .

لا أخفي عليكم أنني كنت أود ابنة عمتي ليلى وكنت معجباً بها، ولولا حبي الذي نبتت جذوره في "الوردة الحمراء"، لكان قلبي يختارها رفيقة له، كنت أكبرها بست سنوات، فهي لم تكمل تعليمها الثانوي بعد، بل إنها لم تبدأ هذه المرحلة التعليمية .

تزوجتها يوم تخرجي من الجامعة، كانت جميلة ومبهجة يوم زفافها، أما أنا فكنت أؤدي وظيفة الزواج ليس إلا، قلت في نفسي ربما تتغير مشاعري بعد الزواج والتقرب من ابنة عمتي، إنها جميلة ورقيقة، وتحبني، تفاعلت معها، هربت من أفكاري وذكرياتي مع خلود، لكنني لم أوفق في كبح مشاعري وأحاسيسي مع تلك التي أحبها قلبي وأسكنها كل مساحاته، كيف لي أن أنسى المرأة التي تعاملت مع رجولتي وأيقظتها من غفوتها، كيف لي أن أنسى لمستها الرقيقة، ونظرتها الحالمة، ودمعتها التي سقطت على خدي حين قبلتني تلك القبلة الملتهبة بمشاعر الشوق وهي تودعني، انني أحبها ولا أحد سواها يعيش في قلبي .

١٥

سألت ليلى :

– ما رأيك في العودة إلى الوطن ؟

قالت :

– ألم تقل لي إنهم سيعتقلونك على الحدود لو رجعت؟

– نعم، ولكن ما قيمة الإنسان دون وطن؟

– كم مدة الاعتقال التي تتوقعها؟

– لا أعرف، ربما سنة أو سنتان .

– إذا كان الأمر كذلك فلا مانع عندي من أن نعود، ولكن اذا كنت ستقضي سنوات طويلة في المعتقل فالأحسن أن نبقى هنا في عمان، حيث لنا أصدقاء وأهل، وعملك جيد ومكسبه ممتاز .

– ولكن هناك القدس مسقط رأسي وأهلي وعزوتي، وبيتي، وحارتي وجيراني، هناك أستطيع ملء رئتي هواءً نقيا، تطيب له نفسي وتطمئن له إرادتي، هناك الناس الذين يفهمون لغتي وأفهم أنا لغتهم، هناك ذكرياتي المحفورة على كل ركن من أركانها .

– وهنا صار لك أصدقاء ونسجت حياة خيوطها من السعادة والهناء، كما وجدت الطمأنينة، وراحة البال، هناك، سوف تتعذب عذاب البعد وعذاب السجان، وسوف تعاني ألم المعاناة وقسوتها، لقد أصبح لك هنا أيضا وطن، فكيف تغادر من وطن إلى وطن؟

ألم تقل لي يوما إن الوطن هو الإنسان؟

ألم تقل لي مرارا " جنة من دون ناس ما بتنداس " ؟

- أجل، قلت لك ذلك كله، وما زلت عند رأيي، إلا أنني أحن كثيرا إلى القدس، وحاراتها وأزقتها، أتوق للجلوس تحت شجرة البيلسان الصامدة رغم العواصف والأعاصير التي تحيط بها من كل جانب، أشتاق لأحاديثها، ونسماتها، ورائحة عبيرها، لا يغادرني طيفها.

ليتني الآن أجول في أحيائها، أسير بخطوات منسابة بين الأزقة العتيقة، ألتهم بناظري جمال التاريخ وهو يحتضن الأفئدة التي تسكن تحت قبابها، وتلك التي غادرتها ذات حزيران، أمرُّ حالماً من باب الساهرة أعانق حارة السعدية أقبِّل شجرة التوت التي كنت استظل بظلها أنا ورفاقي، وألمس أغصانها، وأوراقها، وساقها الهرِم، وأحْضن بيدي حفنة من ترابها، وأجلس على حجر مقابل سورها . . . تُرى . . . ألا يزال يحتضن المدينة بحجارته التي تمتزج أنفة وعظمة وكبرياء أطفالها الذين صادقوا الشمس؟ فرسموا لوحاتهم مع العشاق.

لعلني أجد آثار أقدام تركتها يوما على عتبات حوش البسطامي، أُعرِّجُ على المئذنة الحمراء أعانق نخلتها وزيتونتها ومحرابها، وقبل أن أدخل إلى الحرم من باب الغوانمة؛ أزور المدرسة العمرية. . . أتحسس حجارتها وأخلع نعليَّ للسير عاري القدمين فوق بلاط ساحاتها التي شهدت إحياء يوم المعلم، ويوم الأم، ويوم العامل، ويوم الأرض؛ ويوم الشَهيد، والأسير، والشجرة؛ وحزيران، وآب، وأيلول، واحتضنت آمالنا، وأحلامنا، وصرخاتنا، ودعوات راهبة ركعت على

بلاطها الرخامي، فهل بقي صدى لصوت روادها ؟

تسكن ذكرياتي في كل ركن من أركانها، تحفظ أقدامي ذرات ترابها عن ظهر قلب، تشابكت المشاعر واتحدت يوم جنازة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الرمزية، دبَّ الحماس في كل أوصالي عندما رأيت حشداً كبيراً من الناس بهذا الحجم، يومها شدَّ الناس رحالهم إلى القدس من كل مدن وقرى ومخيمات فلسطين، تجمعوا في ملعب الروضة خارج أبواب البلدة القديمة من جهة باب الساهرة، رأيتهم يحملون رايات ولافتات بكل الأحجام إلا إنني لم أر علماً فلسطينيا واحداً بينها، فتذكرت علمي، وعلى الفور توجهت إلى البيت مثل البرق، صعدت السلالم ثلاثاً ثلاثاً، اندفعت داخل غرفتي، لم أغلق بابها خلفي، رفعت فرشة سريري وأخرجت العلم من تحتها، طويته ووضعته تحت قميصي ورجعت إلى ذلك الحشد وهامتي تزداد ارتفاعا مع كل خطوة من خطواتي السريعة.

كانت الجنازة قد تحركت من ساحة ملعب الروضة، فتبعتها عبر شارع الزهراء، فشارع صلاح الدين، ثم شارع السلطان سليمان، من جهة المدرسة الرشيدية، حتى لحقتُ بها عند سوق الجمعة، أخذت ألتمس طريقي بين الزحام إلى أن وصلت إلى أول الحشد وهناك أخرجت العلم ليعانق سماء القدس ويعيد إليها الحياة التي فقدتها منذ زمن، وعندما شاهد الناس العلم يرفرف عاليا؛ علا تكبيرهم وانسكب دمعهم، فامتزج التهليل والتكبير والدعاء، واتسعت حدقات

العيون وذابت مشاعر الناس حتى غدت أصواتهم تلامس السماء، حاول بعضهم أخذ العلم من يدي، فتمسكت به بكل قوتي وعنادي، والبعض صرخ بمن حاول ذلك: دعوه وشأنه، مشيت مزهواً وأنا أشعر بعيون تغبطني وأخرى تلتهمني حسداً، كنت ممسكا به بكلتا يدي، قدمت لي إحدى السيدات وكانت ترتدي ملابس سوداء وتضع على عينيها نظارة طبية بإطار أسود، قدمت لي عصاً لأثبت العلم عليها، وأرفعه عاليا، رأيت فيها امرأة رقيقة وحنونة ومحبة لما فعلت، استمرت المسيرة باتجاه باب الأسباط، وكلما اقتربنا من الباب ارتفعت الأصوات بالتكبير والدعاء، وكانت هناك عيون أخرى ترقب ما يدور باهتمام، تلك العيون، لا تنتمي إلى المسيرة وإنما هي عيون رمادية، لا لون لها غير لون الحقد والقهر والتسلط، هي عيون مهمتها نزع الحياة من الحياة، عيون وهراوات وبنادق، موت يحتشد بين الظلال، لم أعبأ بهم ولم أخف، ولم أنزل الراية من يدي، فأنا المسؤول عن سلامة الراية التي بها سلامة المسيرة، وعندما اقتربنا من باب الأسباط لاحظت عددا من الجنود يسير باتجاهي، فأدركت الخطر المحدق بي، أخذت أسير بخطى بطيئة، محاولاً عدم لفت انتباههم، مشيت باتجاه باب الأسباط الذي لم يعد يفصلني عنه سوى أمتار، وما أن شعرت أن باستطاعتي الولوج إلى داخل البلدة القديمة، حتى عدوت بكل قوتي وأنا ما زلت أحمل العلم بعد أن خلصته من العصا، وضعته تحت قميصي، كنت أعدو والجنود خلفي، والناس تصرخ قائلة: أرميه أرميه، وأنا أعدو بأسرع ما أستطيع، عبرت طريق باب حطة من أمام الصلاحية، باتجاه المدرسة البكرية، كان باب الملك فيصل مغلقاً فلم أدخل باتجاهه، بل صعدت

الطريق باتجاه المدرسة العمرية، لم ألتفت لأحد بقيت أعدو حتى دخلت طريق باب الغوانمة، وعندها اطمأن قلبي إلى أنني زغت منهم، فأنا أحفظ أزقة البلدة القديمة عن ظهر قلب، وهم غرباء عنها، ثم دخلت إلى زقاق الزاوية النقشبندية، اندفعت داخل بيت أم سعيد، أغلقته خلفي، هم لم يعرفوا أين دخلت، فقد حجبتني عنهم زوايا المدينة وأزقتها الضيقة، كانت أم سعيد امرأة في الخمسينيات من عمرها، وكان سعيد من الثوار الذين قاوموا الاحتلال في بدايته، وهو الآن في المعتقل منذ سنة تقريبا، وقد حكم عليه بالسجن المؤبد بعد أن فجر قنبلة يدوية بمجموعة من الصهاينة، فقتل من قتل وجرح من جرح، أخذتني أم سعيد إلى الداخل، وكانت تعرف والدتي معرفة جيدة، سألتني قائلة:

- ماذا تخفي تحت قميصك؟

- إنه العلم يا خالة وقد أراد الجنود أخذه مني غير أني هربت منهم.

طبطبت على كتفي بكل حنان، وقالت:

-لا تخف، واجلس مع الأولاد.

ناولتني قميصا لأبدله بقميصي، وأحضرت لي كأساً من الليمون البارد، لم أذق في حياتي الذ منه، ثم جلسنا جميعاً وكأني فردٌ من أفراد الأسرة، لتناول طعام الغذاء، كما شربنا الشاي بالنعناع، بعد ذلك، هممت بالخروج شاكرا ضيافتها وكرمها الأصيل، لكنها أصرت على فحص الطريق قبل خروجي، وبعد أن تأكدتْ أن الطريق خال تماماً من

الجنود، خرجت بصحبتي حتى أوصلتني إلى آخر طريق عقبة صهيون، والعلم تحت قميصي، ودعتها بعد أن أكدت عليّ بتوصيل سلاماتها إلى أمي.

هي الأرض التي عشت عليها، وتعيش هي في داخلي بين نبضي ووجداني، تسكن في عمق ذاكرتي، هواؤها بين مسامات جلدي، ونسائمها بين أوعيتي، حتى ظلالها وفيئها، وشمسها الذهبية بلون قمح حقولها، وسمرة رجالها الذين لا يستسلمون مهما بعدت المسافات، ومهما قلّت الخيارات، ومهما نبضت النخوة عند بعضهم. واعلمي أن لا مكان أجمل من الوطن، ولا راحة إلا بين أحضانه، دعينا لا نتنكر لمن ذهبوا، ولمن صاروا أوتادا في عمق ترابه، عبد الله، وسعيد، ومحمود الذي كان بطلا بكل معنى الكلمة، أذكر تماما عندما رأينا صورة لينا النابلسي على الصفحة الأولى لجريدة القدس، كانت جميلة جدا لم تنه الصف العاشر بعد، كانت لا تزال بزيها المدرسي المخطط باللونين الأبيض والأخضر، وها هي تُلف بالأربعة ألوان بعد ان قتلها جندي صهيوني أمام مدرستها بدم بارد، غلت الدماء في وجوهنا وعقولنا واشتعلنا غضبا وحزنا، استطعنا تجميع عدد من الشباب والبنات وصنعنا لافتات عليها شعارات تندد بجرائم الاحتلال الصهيوني، تعبيراً عن استيائنا ورفضنا لكل أشكال القمع اليومي للاحتلال، خرجنا من الحرم الشريف قرابة الساعة التاسعة والربع صباح يوم الثلاثاء الثامن عشر من أيار العام ستة وسبعين، مررنا عبر سوق القطانين صعودا إلى سوق خان الزيت عبر عقبة الخالدية ومن ثم عقبة السرايا فالقيرمي وعندما

وصلنا إلى مفترق سوق العطارين وخان الزيت والدباغة؛ فوجئنا بمجموعة من جنود العدو، لا تزيد على أربعة جنود، أخذوا بإطلاق الرصاص علينا دون سابق إنذار، فشاهدت صديقي محمود قد سقط على الأرض، لم أدرك في البداية أنه تلقى رصاصة قاتلة في جبينه من الجهة اليسرى، حاولت مساعدته أنا ومن كان بجانبي وعندما وضعت يدي تحت رأسه كان دمه ساخناً وينزف بشدة، أحضر باب خشبيا، وضعنا الجريح فوقه وطرنا به إلى مستشفى "الهوسبيس" في شارع الواد، كل ذلك ولم تصل الساعة العاشرة، أعطي الجريح الدم اللازم، حاول الأطباء إنقاذه بكل السبل، خمس ساعات وهو بين الحياة والموت، إلى أن فارق الحياة في الساعة الواحدة ظهراً، فبكته كل العيون، وبكته السماء بأمطار غير معهودة بمثل هذا الوقت من شهر أيار، وبكته الأشجار، وبكته الأقدار وبكته حجارة المدينة، وسورها، وترابها، طيورها وقفت عن الغناء والتحليق وأعلنت الحداد، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والأشجار وجدران المنازل وأزقة المدينة وحاراتها وسهراتها ونجوم سمائها وغيماتها أعلنت الحداد على الشهيد، سكن كل شيء كما سكن قلبه الغض، كانت رصاصة ذلك الحاقد كافية لتنهي حياة شاب حلم كثيرا بالتحليق في سماء الحياة، كان قلبه ابيض وعقله أخضر ودمه أحمر دافئاً يعيش فيه كل الوطن، حزن كثيراً على لينا، واليوم انفطرت قلوبنا حزناً عليه، أحضرت عَلمي ذا الألوان الأربعة ليحتضن جثمان صديقي.

فقدت صديقي مرة واحدة وإلى الأبد، لكنه لم يغادرني، بقي في

ذاتي المعذبة بعض وطن، بقي في وجداني، وفي عقلي . . .

أنا أعرف كم انت خائفة، وأنا أيضاً خائف، ولكننا لن نهرب من خوفنا، علينا مواجهة هذا الخوف، لأن ما يخيفني أكثر هو ضبابية الحياة هنا في عمان، فلا مستقبل لنا هنا، ولا بوادر لتحقيق الحلم الذي لازمني طوال حياتي، بل إن حلمي بدأ يضمحل شيئاً فشيئاً، أنا لا أجد نفسي هنا، أشعر كأن حدود حلمي تنتهي قبل أن تبدأ، لا سماء ولا هواء ولا شجر، المدينة هنا لا تعرفني، ولا أنا أعرفها، لم تسمح لي مشاعري بالتعرف على غير القدس مدينة أعيش فيها، كما تعيش هي في، ولا يمكن لمن عشق القدس أن يعشق غيرها، كالمحب الذي لا تطاوعه مشاعره وأحاسيسه أن يعرف أو يحب فتاة غير محبوبته، لن أحب مدينة غير مدينتي، ولن أعيش إلا فيها.

١٦

لم نحتج إلا ليومين اثنين لترتيب حقائبنا، ووداع أصدقائنا وأهلنا قبل مغادرتنا عمّان . . .
ألم أقل لك إن هواءها مختلف؟ ألم تشعري كيف رقصت رئتانا طرباً على نغم نسماتها؟

كان أول مشهد نراه عند دخولنا المدينة هو قبة الصخرة المشرفة بكل هيبتها وعظمتها، والشمس تداعبها بأشعتها الذهبية الدافئة، كانت بيوت المدينة تلتصق بها وتحتضنها كأنها أم حنون تظلل أبناءها بحنانها الإلهي.

مررنا بأنظارنا عبر نافذة السيارة على سور القدس وهو يعانق المدينة بشموخ وكبرياء، وأخذنا نقرأ الفاتحة على أرواح موتى المسلمين ونحن نقرأ أسماء من ماتوا شهداء ومرابطين، وأولياء ومظلومين، على من دفنوا في باب الرحمة، بجانب الصحابيين الجليلين عبادة بن الصّامت وشدّاد بن أوس .

لم نكد ننتهي من قراءة الفاتحة حتى صرنا بمحاذاة سوق الجمعة الذي حملني إلى ذكرى أيام خلت، عندما كنت آتي لمراقبة الحيوانات المعروضة في هذه السوق، كان تجار الدواب من حمير وأغنام وأبقار

وإبل وخيل وبغال وغيرها من الحيوانات، يأتون بها كل يوم جمعة، يبيعون ويشترون ويتبادلون منفعتها، ضحكت كثيرا بيني وبين نفسي عندما مررت بجانب السوق وتذكرت ذلك الرجل الذي أتى بأتانه لكي يجامعها مع حمار فحل من فصيلة مرموقة، فحاول الحمار مرارا أن يدخل أيره في الأتان إلا أن محاولاته المتكررة باءت بالفشل فاجتمع كل من في السوق لمشاهدة هذا الأمر، وأخذوا يشجعون الحمار بالصراخ والإشارات الغريبة التي لم أعرف مغزاها، ولكن الحمار لصّم ولم ينجح في عملية الجماع، ما اعتبره صاحبه إهانة شخصية له، إذ كيف أن حماره الذي يفخر بفحولته أمام كل تجار السوق قد فشل في جماع هذه الأتان، فاحمرّ وجهه وجحظت عيناه حتى خلته سينفجر بكل من حوله من زملائه التجار فقد تحول إلى موقع سخريتهم واستهزائهم، وفجأة هجم على حماره الفحل وأخذ يحثه على محاولة أخرى وبطريقة مستميتة، ولما وقف الحمار على رجليه الخلفيتين مسك صاحبه ذيل الأتان ليفسح المجال للحمار بالمجامعة ولكنه مسك بيده الأخرى أير الحمار وأدخله في الأتان لتنجح المحاولة، بعد ذلك تغير لون الرجل وبدت عليه علامات الراحة، وأخذ الجميع يهنئونه، وهو يسير بينهم مزهوا كأنه فتح الأندلس.

كنت أتخيل تلك الحادثة والابتسامة لم تفارقني، فاستغربت زوجتي الأمر، قاطعتها قبل أن تستفسر عن سبب ابتسامي قائلاً:

- ها نحن في باب الساهرة.

وقفت بنا السيارة أمام المدرسة الرشيدية، كانت المرة الأولى التي ترى بها القدس، نظرتُ إلى تعابير وجهها دون أن تلحظني، كانت مذهولة مما ترى، تنظر إلى كل شيء، إلى أي شيء، كأنها ترسم مشهداً بل تحفره حفراً في مخيلتها، ودون مقدمات قالت:

– معك حق. . . معك حق. . .

١٧

كانت الساعة الثانية صباحا عندما سمعت طرقا قويا أيقظ كل من في البيت، كما أيقظ معظم سكان الحي. . . ما أن فتح والدي الباب لمعرفة الطارق المزعج حتى اندفع الجنود وانتشروا في أرجاء البيت، أخذوا يسألون أبي عن أسماء أولاده، وما هي الا لحظات حتى بدأ الطرق هذه المرة على باب غرفتي، كنت قد جهزت نفسي ارتديت (الجينز) ولبست ملابس ثقيلة رغم أننا في تموز، شعرت بالبرد يدب في أوصالي، إنه ليس كبرد الشتاء ولكنه برد من نوع آخر، أخذوا يفتشون غرفتي ويقلبون أشيائي، ويصادرون أوراقي، وصوري ويكسرون رسوماتي، انكبوا على صورة "لينا النابلسي" يمزقونها بطريقة تدل على حقدهم على كل باحث عن الحرية والسلام، هم يخافون من السلام ويرتعدون عند ذكر الحق والعدل، لهم مفاهيمهم السادية الراسخة في عقولهم المتحجرة، فلا يتوانون عن ركل طفل ما زال في مهده لم يتجاوز عمره أياماً قليلة، ويحتجزون شيخا طاعنا لا حول له ولا قوة، يصرخون بوجهه مهددين متوعدين مكشرين عن أنيابهم الزرق، أمام زوجته وأولاده.

أدركت من اللحظة الأولى بأنهم قادمون لاعتقالي فهيأت نفسي لذلك.

وضعوا رأسي داخل كيس من الكتان المقوى، عليه آثار معاناة، دماء ولعاب وثقوب بحجم حبة سمسم؛ وقيدوني بالسلاسل من

خلف ظهري، مضوا بي مسرعين عبر حوش البسطامي، شعرت بعيون الجيران ترقب من خلف العتمة، وصلتني أنفاسهم ودعواتهم الدافئة، فتعرقت يداي وعادت لي شجاعتي وإيماني وإرادتي.

١٨

كانت سنة طويلة حُرمت فيها من كل الأشياء؛ وسادتي ورفيقتي وسريري وأوراقي ومكتبتي وقلمي وابتسامتي وأنفاسي وأنسامي وأنغامي وقصيدة غنيتها ذات يوم على شرفة منزلي، ومحراب احتضن دعواتي، وأيقونة صادرتها أيدي أعدائي، وكوب شاي بالنعناع بعد الفجر من يد أمي، وخبز وزعتر وزيت زيتون بطعم العشق، ورائحة كعك مقدسي تفوح من مدخنة فرن في الحارة، وصوت مؤذن يكسر صمت السكون في ليالي الشتاء الباردة، وفراشة كنت أرقبها متعجبا، وحمامة كان هديلها يؤنس صباحاتي الصيفية، وشعاع اعتاد مداعبتي صباح كلَّ صباح، وزحام كم تمنيت أن لا أضيق به عنَّد عبوري خان الزيت لتناول الكنافة، وسلة تين أمام امرأة تضع على صدرها أعظم نياشين الكرامة والعزة، تجلس على درجات باب العامود، علمٍ من أعلام المدينة، وعمادٍ من أعمدتها.

حرمت من صديق كان قد غادر دون وداع، وزفاف بنت العم وابن الجيران، تصالحت مع الحياة من جديد ورجعت إلى قصيدتي انسج كلماتها من جديد.

تراكمت في نفسي آلام القهر، وزاد حقدي عليهم، ليس أنا ولا أمثالي من يجب أن يكون محتجزاً في معتقل، بل ذلك "السكناجي" الذي عملت في منجرته تسعة وعشرين يوما في عطلتي الصيفية الأولى،

كنت أعمل من الساعة السابعة والنصف صباحاً لغاية الساعة الرابعة ظهراً، كان يعطيني ورق "السنفرة" ويطلب مني سنفرة الطاولات والطرابزات، ويتردد عليّ كل عشر دقائق ليأمرني بالاستمرار بالعمل، فقد كان يغضب اشد الغضب إذا ما رآني جالساً، كانت يدي تتحرك باتجاهين حتى أصبحت حركتها ميكانيكية لا إرادية، كان يتحسس الطاولات التي انتهيت من سنفرتها وكل مرة يلمس الطاولات فيها يطلب إعادة سنفرتها من جديد، لقد أهلكني هلاكاً ابن الحرام، لم أعرف نواياه العنصرية، إذ كان يتعامل معي بلؤم مبطن، وحقد يجري في دمه الملوث بالخبث.

ما جعلني أتحمل كل هذا الضغط وهذه القباحة؛ هو حلمي بقبض أجرة أعطيها لوالدتي تفرّج بها حالة الفقر التي نعيشها، لم يكن الأمل على قدر الرجاء، فبعد تسعة وعشرين يوماً من العمل الشاق، وعندما حضرت في اليوم الثلاثين كعادتي للعمل واستلام أجرتي، كانت المنجرة مغلقة، انتظرت بجانب الباب وأنا أحتضن زوادتي التي أعدتها لي أمي، قطعة من الخبز عليها رشة زعتر دون زيت، انتظرت ساعة... ساعتين... انتهى معظم النهار... لم يحضر أحد، قلقت كثيرا، كيف أرجع البيت دون أجرتي؟ ماذا سيحل بأمي؟

بقيت أنتظر حتى غابت الشمس تماماً... ولم يأت "السكناجي" ... نزلت دمعتي، بكيت كما لم أبك في حياتي... لم أبك عندما هدموا بيتي في حارة الشرف... لم أبك عندما ضاع أخي يوم طردنا

من بيتنا، يومها ضاع ولم نعثر عليه طيلة اسبوع، حسبناه عند الله، حزنّا كثيراً، وفقدنا الأمل في العثور عليه. . . إلا أننا وجدناه عند جيران لنا، كانوا قد وجدوه في جلبة الناس يوم طُردنا من بيتنا وحينا، كانوا قد توجهوا آنذاك للإقامة في المدرسة الميلوية في عقبة الميلوية، التي كانت لا تزال تحت الإنشاء، بقي عندهم لمدة أسبوع وعندما مروا عليهم للإحصاء سجلوا أخي معهم في بطاقتهم العائلية كفرد من أفراد العائلة، وكنا قد سجلناه أيضا بنفس الوقت في بطاقة عائلتنا، فبقي أخي مسجلاً لدى العائلتين لمدة طويلة، وبذلك صار له بطاقتان وعائلتان ووالدتان ووالدان ودزينة ونصف من الإخوة والأخوات. . .

لم أبك عندما مرضت أمي ونامت في المشفى. . . ولكنني اليوم أبكي قهراً وألماً، كلما مرّ أمام ناظري شريط الأيام الطويلة التي عملت فيها بظروف قاسية لدرجة القهر، ولم يعطني أجرتي. . .

بعد أن فقدت الأمل بحضوره؛ عدت إلى البيت أنا وزوادتي، وخيبتي، كنت خجلاً من أمي، قلت لها إن المنجرة لم تفتح اليوم، وقد انتظرت بجانب بابها طوال النهار، لم تُظهر أمي أي تبرم أو حزن، كانت حكيمة ومتزنة، قالت لي ربما تفتح غداً. . . سبعة أيام وأنا أنتظر الشيطان القذر المغلف بلباس السكناج، لكنه لم يحضر.

سبعة أيام من القهر والغضب، ولم يأت أحد. . .

تراكمت خيباتي. . . أخذت أنظر إلى وجوه المارة، ربما أجده يسير بينهم. . .

كلهم متشابهون، عيونهم رمادية فيها القسوة والخبث، والحقد، والأنانية، واللؤم. . .

كلهم متشابهون . . . نعم ، كلهم متشابهون . . . لن أعمل عند أحد منهم ما حييت ، لن يتكرر ما حدث لي أبداً أبداً أبداً . . . ولن أُضرس مرة ثانية بأنيابهم المسمومة ، لن أكون أداة تخدمهم أبداً أبداً أبداً . . .

١٩

بعد يوم واحد من إطلاق سراحي، أخذت أبحث عن عمل، طرقت أبواباً كثيرةً، في الأندية والمدارس والفنادق، كنت على استعداد للعمل في أي شيء، حتى لا أكون عالة على أحد، فقد كان مجرد التفكير بهذا الأمر يقضّ مضجعي ويسبب لي القلق، لم أكف عن البحث حتى وجدت عملا في سلك التعليم، وفي اثناء انتظاري للردود على طلبات العمل، رجعت إلى مهنة كنت قد عملت بها من قبل، فقد عملت دليلا سياحيا في البلدة القديمة، أخذت أقف بجانب المدرسة العمرية في انتظار سائح يرغب في التجوال عبر " طريق الآلام " كنت أصحب السياح عبر نفس الطريق الذي سار عليه سيدنا عيسى عليه السلام، عندما عُذب واضطهد، ساروا به عبر أربع عشرة محطة أولاها في ساحات المدرسة العمرية، المدرسة التي تعلمت بها، كنا نرى السياح يأتون لزيارة الموقع الذي بدأت منه معاناة سيدنا عيسى عليه السلام، كان الموقع عبارة عن بلاطة من الصخر قديمة تقع وسط الساحة وفي مركزها حفرة صغيرة ملساء تشكلت بفعل الزمن يضع الزائر يده فيها تبركا واعتقادا بأن السيد المسيح قد وضع يده في نفس المكان، والمرحلة الثانية في كنيسة الفرنسيسكان المجاورة للمدرسة، والثالثة قرب الكنيسة الأرمنية الواقعة على مفرق شارع الواد مع طريق الآلام، أما الرابعة فتقع على مدخل الزقاق المؤدي إلى الزاوية النقشبندية، والمرحلة الخامسة وهي عبارة عن كنيسة صغيرة لا تتسع إلا لبضعة أشخاص تقع على مدخل عقبة المفتي من جهة شارع الواد، علماً أن البعض يسمي عقبة المفتي طريق الآلام، ثم المرحلة السادسة التي أقيمت بجانبها كنيسة تسمى فيرونيكا وهي المرأة التي مسحت وجه المصلوب عندما وقع على الأرض ووجهه

مضرج بالدماء، أما المرحلة السابعة فتقع في وسط سوق خان الزيت مقابل نهاية عقبة المفتي، وهذه المحطة وكنيستها الصغيرة لا تفتح أبوابها إلا يوم الجمعة في أثناء "الدورة"، حيث يشارك فيها رهبان وراهبات وقساوسة ومطارنة، وكان يتقدمهم شخصان يلبسان ملابس تقليدية عبارة عن شروال أسود وقميص أسود يرتدون فوقه "فست" مطرزاً عليه زخارف بلون ذهبي، ويضعان على رأسيهما طربوشين أحمرين، ويحملان في أيديهما عصا طويلة مدببة الرأس مغطاة من الأسفل بطبقة معدنية سميكة، وفي نهايتها، كرة فضية تلمع ويتفننان في تلميعها بعناية فائقة، تسمى الصولجان، كان هذان الرجلان يدعيان "القواسة" وهما مسلمان، كانت مهمتهما الرئيسة فتح الطريق للموكب الديني الذي يسير عبر طريق الألام كل أسبوع مرة واحدة، نسميها "الدورة" لأنها تسير عبر كل المراحل التي سار بها المصلوب قبل ألفي عام وهو يحمل على ظهره الصليب، ولذلك يحمل أحد الرهبان الصليب تيمنا به في أثناء الدورة كل يوم جمعة، وهم يرددون صلاة خاصة بهذه "الدورة"، المرحلة الثامنة تقع في دير يوناني على اليسار في أول عقبة الخانقة تصعد إليه بسلم حجري ويسمى هذا الدير على اسم راهب يوناني صالح، ويدعى دير "خرلمبوس"، كان هذا الراهب يصنع الطعام ويقدمه إلى الفقراء من أبناء القدس على غرار تكية السلطان الواقعة في عقبة التكية، أما المرحلة التاسعة فتقع في وسط عقبة الخانقاة، في "حارة النصارى" وأخر خمس مراحل موجودة في كنيسة القيامة.

وفر لي عملي كدليل سياحي في البلدة القديمة دخلًا لا بأس به، كنت أطوف العالم من خلال مقابلاتي ولقاءاتي بالسياح القادمين من

جميع أنحاء العالم، من ألمانيا و فرنسا وبريطانيا وأمريكا وسويسرا وايطاليا، ومن الدول الإسكندنافية ومن دول أمريكا الجنوبية، كنت أحدثهم عن فلسطين وعن معاناة شعبها الذي يرزح تحت الاحتلال، كان معظم السياح يتعاطفون مع يهود، وكان هذا الأمر يغيظني ويؤلمني ولذلك كنت أحدثهم عن المعاناة التي نشعر بها نحن أصحاب الأرض الشرعيين، كنت أدعو بعضهم إلى بيتي ومقابلة عائلتي حتى يتعرفوا عن قرب إلى حياتنا، وبأننا شعب يريد أن يحيا بكرامة على أرضه، يريد أن يقرر مصيره بنفسه دون وصاية من أحد كبقية البشر، نريد هوية ووطناً، كما كانوا يحدثونني عن بلادهم، منهم عرفت برلين وجدارها الذي صار أطلالاً، تعرفت على عادات شعوب وعلى لغات، وعلى أزمات، وقضايا مثل قضية الباسك في اسبانيا، وعلى حياة الشعوب في أمريكيا الجنوبية، وثوراتها، في فنزويلا وجواتيمالا، وهندوراس، ونيكاراجوا. . .

لم أنتظر طويلاً حتى عُينت بإحدى مدارس القدس الابتدائية أنا وسبعة آخرون، شكلنا أول هيئة تدريسية لهذه المدرسة الجديدة، نحن من افتتحها، ورتب أدراجها، ورصد أسماء طلابها الذين هم أيضا شاركوا في افتتاح المدرسة، كانت سعادة الجميع لا توصف عندما وصلت الأدراج إلى المدرسة، في ذلك اليوم، قمنا بترتيب الصفوف. . . هذه الغرفة تصلح لطلبة الصفوف الأكبر سناً. . . وتلك للصغار. . . وهذه غرفة للمعلمين. . . وهنا لا بد من تأسيس مختبر للعلوم، وهذه لا تصلح إلا مستودعاً. . . ولكن، هناك أمر مهم ! غاب عن بالنا جميعا !

إذ لا توجد ساحات للرياضة والنشاطات .

كانت البناية عبارة عن بيت كبير للسكن ، ولم تكن مجهزة لتصبح مدرسة ، فغرفها صغيرة الحجم نسبيا ، وممراتها ضيقة ، وعدد الغرف لا يتجاوز أصابع اليدين ، تتكون البناية من طابقين يعلوهما كرميد أحمر ، والسطح على شكل هرمي ، وأمام البناية حديقة بأشجار وأزهار ونباتات كثيرة ، أنا أحب الأزهار والأشجار والنباتات ، ولكنني أحب أن أقوم بعملي على أكمل وجه ، وتلك الحديقة كانت عقبة أمامي مع الأسف الشديد .

سألت المدير :

– حسب رأيك ، أين أعطي الطلبة حصة التربية الرياضية؟

– عليك التدبر ، فهذا شأنك أنت .

نعم ، قلت في داخلي ، إنه شأني .

بعد انتهاء دوام يوم الخميس قمت بقطع الأشجار التي في وسط الحديقة وتركت تلك التي على الأطراف ، وفي اليوم التالي أحضرت جرافة فسوّت الأرض وفرشتها بالحصمة "بيس كورس" ، حتى أصبحت ساحة .

عندما حضر المدير يوم السبت ووجد المدرسة وقد أصبح لها ساحة ، دُهش كثيراً فهو لم يدر من الذي قام بهذا العمل ! وعندما وجدته حائرا ومرتبكاً ؛ أخبرته بأنني من فعل ذلك ، فجن جنونه وأخذ يسير بكل اتجاه دون وعي أو إدراك ، يتمتم حيناً ، ويصرخ حينا ، احمرّ وجهه غضبا

حتى كادت عيناه تقفزان من رأسه .

كتب إلى مدير التربية كتابا يشكوني فيه، فاستدعاني الأخير إلى مكتبه على عجل، مدير التربية رجل عجوز ولكنه ذو شكيمة وجلد، لدرجة أن المدراء والمعلمين يهابونه ويتفادون الحضور إلى مكتبه مهما كانت الأسباب، كان قد قابلني من قبل عندما كان يترأس لجنة القبول، كان جالساً خلف مكتبه المتواضع تتكدس فوقه الملفات بلونيها الأحمر والأزرق، وكان هناك مكتب آخر يجلس خلفه مساعده، عليه أيضا علامات الهيبة، ولكنه لا يبادر بالكلام إلا إذا أذن له المدير، وقفت بين المكتبين، فقال لي مدير التربية :

– كيف تجرؤ على أن تفعل ما فعلته دون إذن مسبق؟

قلت :

– لقد قال لي المدير : "تدبَّر أمرك فهذا شأنك" عندما سألته أين أعطي حصة التربية الرياضية إذ لا توجد ساحة في المدرسة؟

فكان تدبري على ما رأيت .

قال :

– أتُحضر الجرافة، وتقص الأشجار، وتقلب المدرسة من دون سؤال ولا جواب؟

– وماذا أفعل غير ذلك، لقد اجتهدت، ورأيت أن المدرسة من دون ساحة لا تكون مدرسة .

قال :

– اذهب الآن، وسوف أنظر في أمرك لاحقا .

لكنه لم يراجعني ولم يستدعني لهذا الأمر حتى هذه اللحظة . . .
وأجزم بأنه لن يراجعني أبدا . . .

بقي وجه المدير أحمر ، لم تغادره الحيرة ، وبقيت الساحة يلعب بها الأولاد . . . وبنت الطيور أعشاشها على ما بقي من الأشجار . . .

٢٠

كان راتبي عشر ورقات زُرق إلا "بريزة" كنت أحضر معي عشرة قروش في نهاية كل شهر، أسلمها للمحاسب فيعطيني عشر ورقات ذات العشرة دنانير.

ولكنني استعنت على تكاليف الحياة لإعالة أسرتي باقتناص أول فرصة لشراء حانوت صغير في البلدة القديمة، دفعت من ثمنه مبلغاً صغيرا وقسطت الباقي على دفعات صغيرة يتحملها دخلي المتواضع، لم يمض عام حتى انتهيت من سداد جميع الدفعات، فقد تحسنت الحالة، بعد أن باشرت العمل بالتجارة السياحية، جنبا إلى جنب مع الوظيفة، بدأت حياتي تأخذ منحى مختلفا، هذه الأيام، سكنت نفسي كثيراً مع التجارة والوظيفة، التي توفر لي الاستقرار، والأمان، وتقربني من المجتمع، حتى أصبحت ملاصقا له . . . وبذلك تأكد لي أنني لن أعود لسنفرة الطاولات عند مصاصي العرق والدماء من أصحاب العيون الرمادية . . .

العمل بالتدريس رائع، خاصة التعامل مع الأولاد، تقربت منهم كثيراً وتحدثت إليهم أكثر، فكانوا النافذة التي أطل من خلالها إلى النفس الإنسانية، كانوا يتحدثون معي بكل شيء، حدثوني عن جزئيات حياتهم، عن خصوصياتهم، عن مشاكلهم الصغيرة، عن رغباتهم عن أسرارهم، عن أحلامهم الشفافة، يعربون عن آرائهم البريئة بالمعلمين، وفي بعضهم البعض، لقد كسرت الكثير من الحواجز بيننا، وثقوا بي فأحببتهم، أسروا لي بأسرارهم وشاركوني بقضاياهم، فكنت لهم ناصحا، ومستشارا، وميسرا لما يتعلمونه، كنت ملاذهم، وكانوا هم أيضاً ملاذي، تعلمت منهم أكثر مما علمتهم.

لم أنتبه في ذلك اليوم عندما دخلت غرفة المعلمين ووجدت زميلي الأستاذ محمود قد سبقني إلى المدرسة، فأنا عادة أكون أول الواصلين، لأنني الوحيد الذي يحضر من منطقة القدس بل من البلدة القديمة من القدس، فلا أحتاج إلا لخمس عشرة دقيقة فقط حتى أصل إلى المدرسة، وهو الزمن الذي يلزمني لقطع المسافة مابين حارة السعدية إلى نهاية شارع نابلس عبر باب العامود، بينما جميع الزملاء يأتون من خارج نطاق المدينة، بعضهم يأتي من بيت لحم، وبعضهم يأتي من رام الله، وآخران يأتيان من الخليل، أما محمود فيسكن مدينة البيرة، ولقد سبقني اليوم إلى المدرسة، استغربت الأمر، نظرت إلى ساعة يدي ظناً أنها معطلة، كان يقرأ صحيفته باهتمام بالغ ودخان سيجارته يغطي

المكان، قلت له:

– أنت اليوم سبقتني، فهذه واحدة لك يا صديقي.

فقال:

– أنا لم انم هذه الليلة فقد كنت اتابع نشرات الأخبار، إن الأمر جد خطير، لم يعد في النفس قدرة على التحمل أكثر، لقد تجاوزوا كل الحدود، بالأمس فقط ستة عمال استشهدوا، لاقوا حتفهم على يد سائق شاحنة عسكرية على أطراف غزة، فقد أصبح قتل الإنسان مثل "تكة" السيجارة، وقد ثار الناس في القطاع، وخرجوا إلى الشوارع ساخطين على ما جرى، فالذين قتلوا هم من العمال، وقد خرجوا في طلب الرزق. لقد قتلوا فينا الأمان، وحاصروا الأمل في نفوسنا، وحرموا أطفالنا منه، لم تعد لدينا القدرة على تذوق الحياة، فلا طعم للهواء بعد أن أفسدته جرافاتهم ودباباتهم، تراكمت ندوبنا ولم تعد تلتئم جراحنا فكلما شفي جرح نكأت أحقادهم فينا جروحاً لا تحتمل.

قلت:

– يا أخي، رويدك، فما نحن إلا وقود لهذه السياسات، فلا قدرة لشعبنا الأعزل على مواجهة هذا العدو المركب، فعدونا ما هو إلا بعض عدو كبير بحجم الغرب مجتمعا، وأنا على ضآلة ثقافتي السياسية أسميه " المشروع الغربي" وكانوا يسمونه فيما مضى "حملات الفرنجة"، ونحن – أعزك الله– لا يمكن لنا أن نواجه هذا العدو بأجسادنا العارية.

قال:

– ولكن الإيمان والحق أقوى من كل أسلحة الدمار.

– هذا كلام عاطفي، لا يخدم قضيتنا بشيء، بل إنه يخدرنا

ويساعدنا على النوم متظاهرين بأن ضمائرنا مستريحة ولها أن تستقر، فالواقع أن " المشروع الغربي " يحاربنا منذ قرون، والهجمة على أمتنا وبلادنا ليست جديدة، وإن تبدلت الأسماء، فقد رسم قادة المشروع الغربي الاستراتيجيات ونفذوها بكل حذافيرها بخطوات تكتيكية متناسقة لدرجة الإحكام، وأنت تذكر لا شك في ذلك عندما انهارت القيصرية الروسية في بدايات القرن الماضي، وقامت الثورة البلشفية بفضح الاتفاقيات السرية بين الدول الغربية في تقسيم تركة الخلافة العثمانية بينهم، وبالطبع بلادنا كانت في قلب هذه التركة، من منطلق مبدأ الانجليز " فرق تسد " ، وأنا أرى وهي وجهة نظر "متخلفة" على رأي شيخنا السلحوت أن فُرقتنا هي أقوى أسلحة الدمار الشامل، التي بيد الغرب.

- نعم، ولكن الاحتلال موجود هنا فقط، أما بقية أجزاء الوطن العربي فهي حرة، ولكل دولة جيشها وحدودها، ومرافئها، الجوية والبحرية.

- إن الاحتلال في فلسطين هو احتلال عسكري، ولكنَّ هناك أشكالاً مختلفة من الاحتلال -كما تعرف- ألا ترى على سبيل المثال مناهجنا التعليمية ؟ أهي تعبر عن فلسفتنا العربية؟ أم أنها تعبر عن فلسفة المشروع الغربي الذي يهدف إلى طمس هويتنا، وإلى خلق جيل يقبل بكل ما يأتي به الغرب، جيل يستطيع المشروع الغربي تمرير كل أهدافه الاستعمارية من خلاله، دون أن يكلفه ذلك شيئاً من سمعته أو من خزينته، ألا ترى أن الحلقة تقرب من الاكتمال عندما يعمل الغرب على بث سمومه التي تنخر في أفئدة أبنائنا وعقولهم، من خلال ما تبثه

الفضائيات على شاشات التلفاز المنتشرة بكل بيت من بيوتنا؟

لقد قلت لك يا صديقي إن لديهم استراتيجية وضعت منذ عهد بعيد، قبل تاريخنا وتاريخ آبائنا، من أجل تحقيق غاياتهم وأهدافهم الاستعمارية، أما نحن فماذا نفعل غير ردة فعل هنا وردة فعل هناك على ممارسات الاحتلال اليومية، ردات فعل ليس لها أي تأثير يذكر بل إن نتائجها متوقعة ومدروسة قبل حدوثها، فالغرب ومنفذو خططه من أبناء جلدتنا وغيرهم يستطيعون امتصاص كل ثورة غضب منفردة. . .

قال:

- وكيف لنا أن نصل إلى الوحدة ونحن- كما تقول- على هذه الدرجة من الضعف والشرذمة والفرقة، لا مناهج تربوية سليمة، ولا إعلامٌ يعبر عن نبضنا، ولا مبادئ أساسية في نفوسنا، ولا نملك أي شكل من أشكال ترتيب الذات، فكيف بالله عليك نستطيع الرجوع إلى قيمنا؟ وكيف نؤسس بيتنا ونستعيد الإرادة بعد أن سُلبت منا؟ ولا تنس أزمة الأخلاق التي تعيشها مجتمعاتنا العربية. . .

قلت:

- اسمح لي بأن أحدثك عن زيارتي إلى تايلند، ربما فيما أقول العبرة والدرس. . . والإجابة القاطعة عن كل الأسئلة.

لم أر أجمل من تلك البلاد، هي من البلاد الاستوائية، أمطارها غزيرة جدا، وحرارتها مرتفعة كحرارة قلوب أبنائها الآسيويين، بقاماتهم القصيرة وأنوفهم المنبسطة وابتساماتهم العريضة الدافئة حتى أنهم يسمونها " البلاد المبتسمة " لأنك لا تقابل شخصا إلا وهو مبتسم، ورطوبة جوها عالية لدرجة أن الملابس تلتصق التصاقا بالجلد، وطبيعتها خضراء حتى تخالها قاربت اللون الأسود من شدة خضرة غاباتها.

كم أعجبني ذلك العامل الذي ينظف شارعاً من شوارع مدينة "بانكوك" !!، كان يحاول التقاط ورقة صغيرة من بين حجرين بجانب رصيف الشارع بينما الأمطار تهطل بغزارة، يحمل تحت إبطه قفة من القش وعلى رأسه قبعة عريضة من القش أيضا يغوص فيها رأسه حتى تلامس نهاية حاجبيه، بقي يحاول نزع تلك الورقة بمقشته إلى أن أخرجها بيده ووضعها داخل القفة وأكمل مسيره باحثا عما يعكر نظافة الشارع، لقد كانت شوارع المدينة نظيفة بشكل لافت، ولا غرابة إذا كان عمّال النظافة بهذا القدر من الانتماء للعمل.

كل شيء مباح بقدر كبير في هذه البلاد "تايلند" بلد الإباحية في كل شيء في الجنس وخاصة الشاذ منه، في الطعام؛ فهم يأكلون كل شيء لا حدود لرغباتهم في الأكل، يأكلون الزواحف والقرود، والسلاحف،

والضفادع بأنواعها، والثعابين، والحشرات يتسلون بها في أمسياتهم.

إباحية المخدرات وهي رائجة بين جميع فئات المجتمع الصغير والكبير يتعاطاها، وكثير من السياح يأتون "للاستمتاع" بكل هذا القدر من الإباحية يأتون للمقامرات في أنديتها المختلفة وطرقها المخترعة، في مصارعة البشر ومصارعة الكلاب ومصارعات الطيور وخاصة الديكة ومصارعة العقارب.

تروج فيها المقامرات التي كثيراً ما تنتهي بين المتراهنين بالقتال، كما تنتشر الجريمة في أماكن التجمعات هذه. . . هي بلد المتناقضات بكل ما في الكلمة من معنى.

خرجت من الفندق نشطاً أسير في شوارع مدينة "بتايا"، المدينة مزدحمة جدا بالسياح القادمين من جميع أنحاء العالم وخاصة الأوروبيين منهم، لفت انتباهي ذلك الصف الطويل من الناس الذين يقفون لشراء تذاكر لركوب سفينة متجهة نحو إحدى الجزر الصغيرة عبر المحيط أمام سواحل المدينة، وقفت خلف الأخير في الصف، كانت السفينة متوسطة الحجم، والمسافرون يجلسون على كل شيء، التمست لي مكانا على طرف السفينة في الجهة اليمنى، عندما أخذت تمخر عباب الماء برشاقة فتكسر الأمواج على بدنها الحديدي، كان صوت الآلة عالياً جدا، ما جعل الناس لا يسمعون بعضهم بسهولة، فتراهم يصرخون في آذان بعضهم البعض، فتسمع لغات كنت أفهم بعضها ولا أفهم غالبيتها،

كان بعض الركاب من أهل البلاد يجلسون على أرضية السفينة في حلقات يلعبون الورق، وآخرون يلعبون الداما، ومجموعة يتبادلون النكات و الضحكات بصوت عال، ومنهم من يجلس بجانب رفيقته يتهامسان همس العشاق فترى أعينهما تذوب كل في الآخر فتعرف بكل سهولة مدى حالة العشق التي يعيشانها، وكان أحد السياح الذي بدا لي أنه ألماني، يجلس في وسط مجموعة من النساء التايلنديات، يتبادلن معه الحديث واللمسات. . .

بعد أقل من ساعة، وصلنا إلى ميناء جزيرة "كو ساميت"، أخذ الركاب ينزلون بهدوء، كان هناك عدد ليس بقليل من السماسرة وسائقي الدراجات النارية؛ التي هي الوسيلة الوحيدة للتنقل على هذه الجزيرة، ولا يستطيع السائق نقل أكثر من راكب واحد، ركبت خلف أحدهم على دراجة نارية، كان شابا في مقتبل العمر أظنه لم يتجاوز الثامنة عشرة، كان لطيفاً ومؤدبا، يتكلم القليل من اللغة الانجليزية، سألته:

– ماذا هناك على هذه الجزيرة من معالم تنصحني برؤيتها والاستمتاع بها؟

فقال لي:

– هناك ناد للرماية، والشاطئ الذهبي.

قلت له:

– خذني إلى نادي الرماية وبعد ذلك نذهب إلى الشاطئ.

الطريق وعر ومليء بالصخور البارزة، كان السائق بارعاً جداً

ويعرف مسالك الطريق بسهولة واضحة، كان نادي الرماية عبارة عن منصة عليها أنواع مختلفة من الأسلحة النارية الأوتوماتيكية والمسدسات، كان الكثير من السياح يأتون للتمتع بالرماية بهذه الأسلحة التي كانت مثبتة بشريط من القماش المقوى، وتستخدم ذخيرة خاصة، كان مقابل المنصة أهداف مثبتة وبأحجام وأبعاد مختلفة، فإذا أردت استعمال المسدس يكون الهدف أكبر وأقرب إلى المنصة بنفس الوقت، أما إذا اخترت البندقية فيكون الهدف أبعد لا تكاد العين المجردة تراه، دفعت مبلغ "عشرين باتا" مقابل إطلاق عشر رصاصات من مسدس، أما إذا أردت أن أستعمل سلاحا أوتوماتيكيا فإن المبلغ سيتضاعف.

لم أجد بأسا من التجربة، فقد توفرت الفرصة ولن أفوتها، بعد ذلك ذهبنا إلى شاطئ البحر، كان شاطئاً جميلاً، مياه البحر صافية جدا باستطاعتنا رؤية قاع البحر بسهولة، سرت في المياه على الأقدام أكثر من مئة متر ولم يصل الماء لمستوى الركبة، وهذا شيء مدهش لم أره في أي مكان آخر، كما أن الشاطئ طويل وواسع ومن خلف الشاطئ تمتد غابات شاسعة وتلال مليئة بالأشجار، ورمل الشاطئ ناعم يلمع كالذهب من اشعة الشمس المنعكسة عليه كأنها تعانقه بحنان أم رؤوم.

تمددت على كرسي طويل كالذي يستعمل على الشواطئ مرتدياً بنطالاً من الجينز الأزرق وقميصاً خفيفاً، ولم أكد أستريح حتى جاءني أحد الباعة المتجولين يعرض علي بضاعته قائلاً:

- من أين أنت؟

قلت:

– من فلسطين .

فقال :

– "باكستان" ؟

– لا ، فلسطين .

قال :

آآآه ، ياسر عرفات ؟

– نعم ، ياسر عرفات .

– فأنت إذن مسلم؟

– نعم ، أنا مسلم و–الحمد لله–

– أنا أيضا مسلم!

– إذا كنت مسلماً حقاً فاقرأ لي سورة الفاتحة .

قام بقراءة سورة الفاتحة دون أخطاء وبصوت خاشع ، فاشتريت منه خمس محافظ جلدية وأربعة أحزمة جلدية ، وناولته ثمنها عشر "دولارات" ، فحياني وغادر المكان .

لم ينته الأمر عند هذا الحد ، فبعد خمس دقائق جاء بائع آخر وسأل إذا كنت مسلما وقال لي إن اسمه عبد الله تماما مثل اسم الأول فاشتريت منه ضعف الكمية الأولى ولكن بنفس الثمن ، وبعد خمس دقائق من ذهاب البائع الثاني حضر بائع ثالث ، وهذه المرة سألته أن يقرأ لي ما يحفظ من القرآن الكريم ، فقرأ لي كامل سورة ياسين ، وبطلاقة ودون أية أخطاء ، فكنت كلما قرأ آية أعدل من جلستي احتراما له ، حتى

صرت جالساً على طرف الكرسي، قلت له:

– بارك الله فيك يا أخي، ولكنني لا أحتاج لشراء المزيد، انظر إلى الكمية الكبيرة التي اشتريتها، فأرجو منك المعذرة.

قال:

– لا يا أخي، إنما أردت التعرف عليك فقط.

قلت:

– هذا يشرفني، فقدمت له نفسي، بعد أن عرفني بنفسه وكان اسمه أيضاً عبد الله، ما أدهشني، وجعلني أستفسر منه عن هذا الأمر، إذ من غير المعقول أن تكون أسماء الجميع "عبد الله"، فسَّر لي ذلك قائلاً:

– إن جميع أسماء الذكور نسميهم "عبد الله"، واسم آخر تايلندي يتبعه، فاسمي أنا هو "عبد الله ميناس".

دعاني عبدالله ميناس إلى بيته لتناول الغداء، قبلت دعوته لعدم رغبتي بأن أكون فظاً من جهة، ومن جهة ثانية؛ أردت التعرف إلى نمط حياتهم عن قرب، استأذنني في الذهاب إلى حانوت قريب من المكان لوضع بضاعته فيه، لم يغب أكثر من خمس دقائق.

وعندما عاد، قال لي مبتسماً:

– هيا بنا نُسرع قبل مغادرة المركب، ركبنا قارباً صغيرا، حملنا إلى السفينة التي كانت راسية في المياه العميقة، هي ليست نفس السفينة التي جئت على متنها إلى الجزيرة، كما أنها لا ترسو في نفس المكان، وبرنامج مغادرتها غير البرنامج الخاص بالسفينة الأولى، فقد تبين أن

هناك أكثر من موقع للسفن.

اقترب قاربنا الصغير من جسم السفينة حتى التصق بها تماما، ثم صعدنا إلى السفينة بكل حذر بمعاونة أحد البحارة الذي كان يساعد ركاب القارب بالصعود إلى السفينة، وبحار آخر يقف بجانبه لاستلام الأجرة من المسافرين.

لم يسمح لي عبد الله ميناس بدفع الأجرة، وأصر أن يدفعها هو، نزلت عند رغبته على استحياء، لم تختلف وجوه المسافرين هذه المرة عن سابقتها، ولا أسلوب قضاء الوقت من قبلهم، ضحكات وابتسامات، وأحاديث، وصمت وتحليق، وأوراق لعب، وصوت محركات تهدر، ومقدمة السفينة تشق المياه مكسرة الأمواج فيتطاير رذاذ الماء ليداعب وجوهنا في هذا الجو الشديد الرطوبة، وصلنا الميناء الذي صعدت منه، كان لعبد الله ميناس دراجة نارية مركونة إلى جانب الممر القريب من الميناء وقد أحكم ربطها بسلسلة حديدية، صعدت خلفه متوجهين إلى بيته، كانت الطريق في معظمها بنفس اتجاه الفندق الذي أنزل فيه، إلا أنه توجه نحو اليمين قبل موقع فندقي بعشرة كيلومترات تقريباً، دخلنا إلى منطقة تختلف اختلافاً كليا عن باقي أحياء المدينة، فقد شعرت بأنني في عالم آخر يختلف كل الاختلاف عما يبعد عنه بضع عشرات من الأمتار، كانت المساكن عبارة عن بنايات صغيرة الحجم، مستقلة عن بعضها البعض، لكل بناية مدخل خاص بها، يشبه ساحة مربعة صغيرة المساحة يحيط بها سور بعلو خاصرة الرجل، عُلق على جدار

البيت الأمامي إطار كُتب فيه سورة قرآنية، لاحظت ذلك في جميع بيوت الحي التي يتوسطها مسجد صغير بمئذنة لا يزيد ارتفاعها على عشرة أمتار، انتابني شعور بالطمأنينة لهذا المكان، فهو غير بقية الأمكنة التي رأيتها في هذه البلاد، كل شيء هنا مختلف عن بقية الأماكن، البيوت، الطرقات، الحوانيت، الصلوات، اللباس، لغة الخطاب، أما القامات فهي متشابهة في القصر، لون العيون سوداء متشابهة، الأصوات متشابهة، صورة الأنف واحدة، الابتسامة ذاتها في كل الأماكن، لم يكن في البيت أحد، كما لم أر أثاثا غير حصيرة فُرشت على أرض الغرفة ومروحة هوائية ثُبتت في سقف الغرفة تتحرك باتجاه عقارب الساعة بتثاقل كمن يحمل هموم الدنيا على كتفيه، جلسنا على الحصيرة مسندين ظهورنا إلى الحائط.

أخبرني أن زوجته وحماته لم تعودا من عملهما في السوق بعد، ولذلك فإنه طلب من عمته إعداد طعام الغداء، وسألني إن كنت راغباً في الذهاب إلى السوق ليقدمني لهنَّ، فوافقته، تحركت بنا الدراجة النارية وأنا جالس خلفه بكثير من الحذر، إذ إنني لم أعتد ركوب الدراجة النارية بعد، فهي بالنسبة لي مغامرة بحد ذاتها، لم أتصور نفسي راكبا على دراجة نارية أبداً، واليوم فإنني لا أتنقل إلا بواسطتها، "فللضرورة أحكام".

كان سائقاً ماهرا يتحرك بدراجته برشاقة وخفة، يعبر فينا من شارع إلى آخر بحركات موزونة وكأنه يعزف لحناً موسيقيا، يتنقل بنا عبر

حشود من الناس والآلات وحبات المطر حتى وصلنا إلى السوق.

كانت السوق عبارة عن أربعة صفوف من الحوانيت تتوسطها ساحة يضع فيها بائعون صغار بضاعتهم المختلفة، وأغلبها خضار أو فاكهة موضوعة في سلال متوسطة الحجم، مصنوعة من القش والخيزران الذي يتوفر بكثرة في هذه البلاد، أما الحوانيت فهي صغيرة الحجم، إذ لا يزيد حجم الحانوت عن ستة امتار، وقد بنيت جميعها على نسق واحد.

كانت حانوت زوجته وحماته، مثل الحوانيت الأخرى إلا أنها كانت على ناصية الشارع مقابل الساحة، كانتا تبيعان نوعاً من الحلويات، كانت الأم تمد العجينة بواسطة اسطوانة خشبية حتى تجعلها رقيقة بسمك ورقة لفافة، ثم تناولها إلى ابنتها التي تضع في وسطها ملعقة وبعض ملعقة من الحلاوة المجهزة لهذا الغرض، وتقوم بطيها عدة مرات ثم ترميها بمقلى به زيت حتى تحمّر العجينة فتصبح جاهزة للأكل، قدمت لي الأم حبة حلوى، لقد ذكرني مذاقها الطيب "بالتمرية" في بلادنا، كان بائع التمرية في حي الشرف يأتي كل يوم بعد العصر، كنا ننتظر قدومه بفارغ الصبر، لقد كانت التمرية لذيذة جداً يحبها الكبار والصغار، كان صوت البائع وهو ينادي على زبائنه جميلاً جدا وخاصة عندما يصيح " تمرية، تمرية، تمرية " كنا نترك كل شيء ونلتف حول بائع التمرية لنشتري منه قبل نفاد الكمية.

كانت المرأتان ترتديان زيا إسلامياً " جلباباً وحجاباً للرأس" مثلهما مثل معظم رواد هذه السوق، اللحوم هنا تذبح حسب الشريعة الإسلامية، والبضائع هي حسب الذوق الإسلامي، بل إنني أعتقد أن البائعين والبائعات هم من المسلمين، ودعنا المرأتين، وعدنا إلى بيت صديقي حتى نتناول طعام الغذاء الذي أعدته عمته، جلسنا القرفصاء أنا وهو فقط، لم يكن في البيت غيرنا، قدم لي الطعام مسكوبا بصحن من الألمنيوم، وملعقة من المعدن، وقد احتوى الصحن على وجبة كاملة من الطعام التايلندي البيتي، وهو مزيج مكون من البندورة على شكل قطع صغيرة غير ناضجة، وبيض مسلوق مقطع، وأرز ملون، وحبات من الجمبري الصغير الأحمر، والبصل مخلوطة مع بعضها البعض.

لم تألف نفسي هذا الطعام بتاتاً، فقلت له مازحا:

- لو كان كل نوع من هذه المحتويات مفصولاً بصحن مفرد لكان ذلك ما أحب، فقال:

- هذا طعامي المفضل.

أخذت ألتقط حبات البندورة، وحبات الجمبري، وأتظاهر بأنني آكل لكي لا أكون فظا أو ناكرا للجميل، شكرته على حسن ضيافته، وهممت بالذهاب، إلا أنه ألح علي بالبقاء حتى يقدمني إلى بقية أفراد أسرته، فلم أجد بداً من الإذعان لرغبته، صنع لي كوبا من القهوة من دون سكر، فكان ذلك ما أحتاج إليه، بعد يوم شاق من التنقل والسفر.

كان أول الوافدين في ساعات المساء بناته الثلاث، أكبرهن في

العاشرة من العمر، وأصغرهن في السادسة، ثم بدأ الضيوف يحضرون على شكل مجموعات صغيرة، رجل وامرأة وأطفال، أحيانا يقل عددهم وأحيانا يزيد عن الخمسة في كل مجموعة، وكان كل من يحضر يجلب معه طبقاً من القش فيه أنواع مختلفة من الفاكهة المحلية يقوم بوضعها في وسط الغرفة ثم يجلس مع عائلته مستندا إلى الجدار.

امتلأت الغرفة تماما، كانوا يتحدثون فيما بينهم وينظرون باتجاهي، الرجال يلبسون طاقية بيضاء وبنطالاً خفيفاً وقميصاً يصل إلى تحت الركبة بقليل، والنساء والبنات، جميعهن يلبسن الجلابيب وغطاء الرأس، جلس عبد الله ميناس بقربي، وأخذ يترجم لي ما يقولون، ويسألني عن فلسطين، وعن المسجد الأقصى، وعن بعض الشعائر الدينية، أنا لست خبيرا بالأمور الدينية، ولكنني شعرت بأنهم يعتبرونني عالما بأمور الدين الإسلامي وشرعه، لمجرد أنني من القدس وأسكن قريبا من المسجد الأقصى المبارك، أجبت عن أسئلتهم بما تسمح لي اللياقة الإنسانية، كانوا يقدمون لي الفاكهة بين الفينة والأخرى، شعرت بعظيم كرمهم، ولطف مشاعرهم تجاهي، كان الحضور يمثل معظم سكان الحي، رأيتهم أسرة واحدة.

لفت انتباهي صورة قديمة معلقة في إطار خشبي متواضع على حائط الغرفة، وهي لرجل يلبس قفطاناً أسود وعمامة، وهيئته لا تدل على أنه من هذه البلاد، فسألت ميناس عن صاحب الصورة، فأجاب بأنها " صورة سيدنا علي " ، قلت باستغراب:

– وهل يعقل أن يكون لسيدنا علي صورة تعلق على حائط؟!
قال باستنكار:
– لا، هذا ليس علي بن أبي طالب، وإنما هو أحد تجار اليمن الذين أدخلوا الإسلام إلى هذه البلاد قبل مائتي سنة.

يتعلم الأطفال في المدارس الحكومية في الصباح، وهم يدرسون حسب المنهاج الدراسي العام للدولة، وهو منهاج مستمد من روح الفلسفة البوذية التي تختلف كل الاختلاف عن العقيدة الإسلامية، ولذلك؛ وحفاظا على عقيدتهم الإسلامية فقد أرادوا استمرارها في عقلية ونفوس أبنائهم، فأسسوا مدرسة مسائية خاصة بهم، يدرسون فيها مبادئ الشريعة الإسلامية وتعاليمها، ويحفظون القرآن الكريم، ولذلك قلما تجد أحداً في الحي لا يحفظ بعضاً من القرآن الكريم، وهناك منافسة في حفظ القرآن، لدرجة أن أقل واحد فيهم يحفظ أربعة أجزاء من القرآن الكريم.

لقد حافظت الطائفة الإسلامية على مبادئها السامية في جو مسموم بالإباحية والرذيلة، وذلك بالإرادة والإيمان الحق، ونحن هنا في بلادنا العربية نستطيع اخذ الدروس والعبر من تلك الشعوب الفقيرة بأن نحذو حذوها وأن نتمسك بقيمنا العربية الإسلامية النبيلة، بدءاً بأسرتنا الصغيرة ووصولاً إلى المجتمع بأسره...

لم يعلق زميلي على قصتي، ولكنه نظر إلي نظرة تحمل الكثير من

التساؤلات، ثم رمى صحيفته بعد أن طواها عدة طيات. . . وغادر الغرفة يحمل بيده خارطة الوطن العربي الطبيعية.

٢٣

لأنني عرفتك ذات مساء، وأودعتك مفاتيح قلبي ذاك المساء، فإنني لا أعرف كيف أعبر ما تبقى لي من مساءات وحيدا، أحلق فيها مع نسمات طيفك الخجولة، ينقلني عبق عطرك إلى جداول الهيام، نغوص معا في يمّ النشوة القرمزية، تدغدغني ذبذبات جسد يكسر بثورته أمواج العشق المتدفق، رغبة تصارع الإرادة، فيختل توازن الروح وتتبعثر بقايا الرماد. . . أيتها الدوحة الباسقة فروعها، الممتدة إلى متاهات النفس التواقة للمس أناملك المعروقة. . . يا من تتهادى فوق مساحات العشق الوردية، بهذا الدلال الأنثوي الطاغي، تصادرين نبضات الكون وتزرعين السكون تحت رماد الجمر، تزرعين الرهبة فيمن يتمناك على مائدته المزدحمة بالكرستال التشيكي، ذي الألوان الليلكية. . .

عانقني صوتها بنبرته الشفافة، تسللت خفقاتها عبر أوعيتي واستقرت في عمق وجداني، طربت على تعابيرها الملتهبة التي أذابت خلايا جسدي، فأيقظت أحلامي من غيبوبتها، أسرتني بسحر بيانها وتألق حروفها، تفوّقت على قصائد العشق في أجندة الشعراء، امتزجت في دمي واستقرت تحت جلدي فاكتسب وجهي لونه الوردي.

اقتربت إلى أقرب مكان لبيتها، وبنيت جسرا طويلا من خيوط الأمل، مشيت عليه في انتظار عناقها لأستسلم بين أحضانها، حيث الدفء والأمان، أيقنت بأنها محطة قلبي الأخيرة منذ التقينا بعد غياب

طويل، وبعد أن فقد كل منا الأمل في لقاء الآخر ليستسلم كل منا بآخر، هي تزوجت برجل لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه، وأنا تزوجت بأخرى، وهي لا تعرفها أيضا، يوم لقائنا الاسطوري كانت بصحبة أختها، لم أعرفها على الفور، ولكن إحساساً ما قال لي: هاتان العينان أعرفهما، وهذا الوجه مألوف لدي... ولكن من أين...؟ من أين أعرفها...؟

يومها كانت أختها التي بدأت الكلام، أما هي فلم تخف نظراتها التي كانت توحي بما يحمله قلبها، فأيقنت أن مشاعرنا تتعانق، قلت لها:

- أنت مألوفة جداً لدي!!! ألم نتقابل من قبل؟

قالت:

- لا أعرف، ولكن لدي نفس هذا الإحساس فأنا أشعر بأننا تقابلنا في مكان ما، ويعرف أحدنا الآخر من قبل...

قلت:

- أنا حكيم...! فهل يذكرك اسمي بشيء؟

أطرقت مفكرة بانبهار، لدرجة أنه خُيل إليّ بأنها حلقت بعيدا في السماء، ولمعت عيناها ببريق صاف أعطى سوادهما جمالاً فوق جمالهما الساحر الأخّاذ، وقالت:

- هل كنت يوما ما تتعلم في عمان؟

- نعم، ولكن ذلك قبل خمسة عشر عاما.

- وهل كنت تعمل في فندق الوردة الحمراء؟

– نعم، وأضفت على الفور، أنت خلود. . .

فما كان منها إلا أن هجمت عليّ لتعانقني عناقاً طويلا ودموعها تنهمر على وجنتيها اللتين احمرتا كجمر من النار، في ظل ذهول أختها. . . أصابتها حالة تشبه الهذيان، وأخذت تقول لأختها:

– هذا هو حكيم حبيبي. . . هذا هو حكيم حبيبي. . . وأخذت تبكي بحرارة من فقد عزيزاً. . .

قالت معاتبة:

– لماذا لم تراسلني؟ لماذا؟

ألم أقل لكِ إنني أعرف هذا الشخص؟ – موجهة كلامها لأختها – ألم تلحظ أننا عبرنا أمام دكانك أكثر من مرة؟

أعادت علي السؤال مرات ومرات. . . لماذا لم تراسلني؟ هل نسيتني بهذه السرعة؟

ألم تكن أول رجل يقتحم حياتي؟

ألم أسلمك في تلك الليلة زمام قلبي؟

قلت لها:

– لقد فُصلت من عملي صباح تلك الليلة وقد نسيت عنوانك في الغرفة آنذاك. . . ولم أعرف لك عنواناً. . .

كل ما أعرفه عنك اسمك الأول وأنك مسافرة إلى نيويورك . . .

خاصمني النوم بعدك، أصابني الأرق، ذاب جسمي واضمحل، وتبعثر تركيزي، وتشتتت آمالي بلقياك، وتهتك حلمي على محراب انتظارك، تمنيتك دائما، لم أجد لك مكانا إلا في عمق أحلامي، فقدتك يا حبيبتي قبل أن أفقد الأمل بلقائك. . . وهنا قاطعتني أختها

قائلة : هي اليوم لرجل آخر ! ! ! –
إن لها زوجاً وأولاداً ، وأنت بالتأكيد متزوج وعندك أولاد ! !

أرادت بكلماتها أن تعيدنا إلى قسوة الواقع اللعين ، نظرتُ إلى خلود فإذا عيناها تلمعان بذاك البريق ، الذي عرفته فيهما قبل خمس عشرة سنة . . . قامت أختها بالاستئذان بالمغادرة ، وقبل أن تغادرا ، أعطتني خلود حجراً صغيراً من الفيروز ، وطلبت مني أن أثبته على خاتم من الفضة ، فأيقنت أنها إشارة إلى أنها ستعود ، ثم ودعتاني وغادرتا الدكان فشيعتهما بناظري حتى اختفتا في لجة الزحام . . .

٢٤

بعد يومين اثنين، عادت تحمل كامل بهجتها، عادت وحدها، دلفت إلى داخل الدكان ومشت بخطا ثابتة حتى وقفت قبالتي، مدت يدها فتناولتها بيدي وأسكنتها في كفي كانت دافئة طرية متعرقة، مسكتها بكل حنان من خصرها، ودون أن تقول كلمة واحدة، دخلنا حجرة صغيرة في نهاية الدكان، أغلقنا الباب خلفنا، وغرقنا في قبلة أذابت حجارة الجدران، لا ادري كيف تجردنا من ملابسنا، تركنا العنان لقبلاتنا تعبر ببطء على مواطن العشق، التحم جسدانا وذبنا في نشوة تثور منها حمم بكل الألوان، تصلبت أزرار صدرها حتى خلتها تنفجر بلهيب شهوة جامحة، سكرت من رائحة جلدها التي كانت كرائحة التوت، ورذاذ حبات حليب تسللت من صدرها المكتنز، داعبت لساني حتى ارتوى عشقا وهياما، توالت نشوتنا وآهاتنا، قبلتها وقبلتني وعانقتها وعانقتني ومع كل نشوة ضممتها وحضنتني، بدلنا كل الأوضاع، عاد إلي ذلك الإحساس الجميل الذي عاش في تفكيري وسكن باطن نفسي، ونقش نقشا على قلبي، عاد كما كان في الغرفة (16)، كم أحب هذا الرقم الذي ارتبط بها، بحبي الأول وعشقي الأبدي، كيف يدور الزمان وهو يحمل كل هذا القدر من المفاجآت! أنا والقدر والسماء ونسمات الهواء الصيفية، ووسادتي وقلمي وأصابع يدي ودموعي وقهوتي وسيجارتي التي صادقتها وشاركتها آلامي، نعشقها.

قلت لها :

– ها نحن التقينا ، وهذه المرة لن نتنازل عن حبنا .

قالت :

– لن نعود أبدا إلى آلامنا نجتر ذكرياتنا ، لن أبعد عنك يا حبيبي مهما حصل ومهما كان ، أنت تجري في دمي وأنا أتنفسك وأعيش على أنفاسك الدافئة ، تعذبت كثيرا وأنا بعيدة عنك ، لا أريد رجلا آخر في حياتي ، عدني أن لا تتركني يا روح الروح .

– أعدك ، وأعد نفسي ، وكيف أتركك وأنت تسكنين تحت جلدي ، وفي قلبي الذي يذوب شوقا لحضنك .

– أنت حبي الوحيد ، معك أشعر بالأمان والطمأنينة ، بين أحضانك أستطيع الاستسلام وأشعر بالسكينة ، أنت ملاذي وعزوتي ، لن أعود إلى دموعي وحسرتي .

تعاهدنا على الوفاء ، انصهرت حياتنا معاً ، حملنا سِرَّنا في صدرينا وحدنا ، لم نشارك به أحداً مهما كانت علاقتنا به .

إلا أن السعادة لا تكتمل فقد كانت في طريق هذا الحب الجارف عقبتان ؛ هما "ليلى وياسين" !!!

لقد شعرنا معا بالأمان وبالخوف ، بالطمأنينة والقلق ، بالرضا

والتنكر، أنا أحبها حباً ما أحببته امرأةً من قبل، ولكنها اليوم غيرها قبل خمس عشرة سنة، هي الآن على ذمة رجل آخر، وأنا أيضا متزوج من امرأة أخرى . . .

٢٥

قررت خلود أن تخبر والدتها بنيتها ترك زوجها مرة واحدة وإلى الأبد، حتى نتزوج ونعيش بقية حياتنا معاً، قلت لها أن تسافر إلى والدتها التي تعيش مع أخيها وأختها في أمريكا، وهناك تخبرهم بأنها تريد الانفصال عن زوجها، وبأنها لا ترغب في الاستمرار معه.

حزمت حقائبها وذهبت وحدها تاركة ولديها عند أبيهما، كان إصرارها على هذا الأمر واضحا، وعزيمتها قوية، لم تفاجئني بإصرارها هذا، فهي صادقة في مشاعرها تجاهي لدرجة أنها قالت لي في إحدى المرات عندما سألتها عن درجة حبها لي، فأجابت بأنها تحبني أكثر من ابنيها.

لم تكن مهمتها سهلة في تنفيذ ما عزمت عليه، فلن يكون موقف أمها أو أخيها أو أختها التي تعيش في كنف أمها سهلا، ولن يوافقوها الرأي والقرار، فقد أخبرتني بما دار بينهم بالتفصيل، وسجلت مجادلتهم معها بكل دقة، فقد قالت لي عبر جهاز الهاتف: قلت لهم:

" أنا لن أعود إليه مهما حصل، فقد تحملته حتى أصبحت عاجزة لدرجة الشلل، فقد شُلّ تفكيري، وُسلبت إرادتي، وصودرت مشاعري وأحاسيسي، وبهتت ألواني، وحشرت أحلامي في زوايا البؤس الضيقة المظلمة، لا ترى النور في وضح النهار. أرجوكم لا تضغطوا عليّ.

قالت أختي :

– ولكن لماذا الآن ؟ بعد عشر سنوات من الزواج ! ألا يهمك أبناؤك ؟

ألا تفكرين بهم ؟

ألهذا الحد وصلت بك الأنانية وحب الذات؟ لدرجة أن تتركي حياتك خلف رغباتك الخاصة ؟

– ليس لدي رغبات خاصة .

– وماذا تسمين ذلك ؟

– إن عيشتي معه رتيبة لا حياة فيها، أنا في الظاهر على قيد الحياة، ولكن في حقيقة الأمر أنا مدفونة في قبر برودته، وجبروته، وجهله، وتحجر أفكاره، وسلبيته، أنا ميتة منذ الأسبوع الأول لزواجنا قبل عشرة أعوام طويلة، كان الزمان يسير فيها أبطأ من عربة ثقيلة تسير ميلاً واحداً كل سنة، إلا أنني تحملته للأسباب نفسها التي تضغطون عليّ بها الآن، ولكنني اليوم، ليس أمامي سوى الانفصال عنه تماما .

– بالتأكيد أنت غير جادة فيما تقولين، فكيف

يكون مصير الأولاد ؟ هل تريدين تشتيتهم . . .

– صدقوني إن قراري هذا في مصلحة الجميع وخاصة الأولاد، فأنا لم أكن طيلة السنوات السابقة مستقرة نفسيا .

– يكفيك من هذه التَّرهات .

– أنتم لا تتصورون شكل الحياة في ظل الخلافات المستمرة، إننا نُتعب الأولاد أكثر ونحن تحت سقف واحد من المشاكل والخلافات والنقاشات الحادة التي تتبعها الشتائم والسَّباب، وبكل اللغات واللهجات المعروفة

وغير المعروفة، لقد تلوثت آذانهم بكلمات وألفاظ مسممة لدرجة القرف.

- ربما هناك من يلعب في تفكيرك؟
- ماذا تقصدين ؟
- يعني . . . شخص ما؟
- أرجوك، أنا لا أسمح لك بهذا .
- إذن، ما هي الأسباب الموضوعية وراء قرارك هذا ؟
- هناك الكثير من الأسباب، ولكنني لا أستطيع البوح بمعظمها .

قالت أمي :

- لماذا لا تعطيه فرصة أخرى ؟ وأن تحاولي معه مرة ثانية ؟
- " لا يُصلح العطار ما أفسدَ الدهر " . يا أمي، أرجوك، افهميني، فأنا أعيش في عذاب دائم، وأكتم في نفسي، ألست أنا ابنتكم أيضا؟ فلماذا لا تخافون عليّ ؟ أنتم تحثونني على الرجوع لجحيمه وكأنني مخطئة في حقه، متناسين انه هو من حرمني من كل شيء جميل في هذه الحياة، إنني لم أسمع منه جملة واحدة تعبر عن إنسانيتي . . .

فهو يعتبرني "جاريته" ، له الأمر وعليّ الطاعة العمياء، لا حقوق لي عليه، فهو إن أطعمني، يمُن علي، وإن ألبسني، يمُن عليّ، أنا في نظره " جارية " لا حقوق لها، مجردة من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، أعيش فقط لخدمته وتلبية مطالبه حتى أنني فقدت القدرة على التفكير، لدرجة أنني رغبت بإنهاء حياتي، فتقدمت إلى إحد المستشفيات للتبرع بأعضائي، بدءاً بكليتي وانتهاءً بحدقة عيني، إنه يُعَيِّرني دوما بظروف زواجنا ويقول لي بأن نفسه بالزواج من عذراء، لقد اعتاد على إهانتي

والنظر نحوي بدونية.

ارحموني أرجوكم، ولا تزيدوا عذابي، فأنتم عزائي الوحيد، وأهلي الذين الجأ لهم في محنتي، لم يعدُ يجدي الأمر شيئا، الانفصال ولا غير الانفصال لنعيد الحياة إلى مسارها السليم، ولهذا معنى واحد؛ وهو أنني أولد من جديد وتعود لي حياتي التي سُلبت منذ عقد من الزمن، فقد أضعت زهرة عمري، صادر أنوثتي، حرمني من متع الحياة، لن أعود إليه . . . لن أعود إليه . . . لن أعود إليه . . .

إنني أعيش في غربة قاتلة موحشة منذ زواجي منه، حياته غير حياتي، تحملته على أمل إيجاد وسيلة تفاهم وأسلوب حياة ليس مثل حياتنا لكنه قريب مما نشأت عليه في بيت أبي، هو يختلف عن الرجال، لا يتحدث إلا إذا طلب منه الحديث، فلا رأي له بين الرجال، ولا دور يقوم به في حياتنا إنه سلبي لأبعد حدود، الجميع هنا صغيراً كان أم كبيراً، يسيطرون عليه، فلا يقدر على الدفاع عن حقه، يتعدون علي أمامه ولا يجرؤ على الدفاع عني، يتهجمون علينا فلا يبادر بالدفاع عن حقوقنا أمام الجيران أو أمام اخيه، المتسلط، لقد مللت هذه الحياة، أنا أموت عشرات المرات كل يوم، ولا أريد أن أصف لكم كيف أقضي ساعات الليل بين دموعي وآهاتي وطوفان خيباتي، الألم هو الألم عند بني البشر ولكن الألم عندي مختلف، إنه يسري عبر عروق وجهي، ومسامات عقلي، والهواء الذي أتنفسه مشبع بالألم، إنه لا يحرك ساكنا أمام نظرات أبيه أو أخيه التي تنهشني نهشا، وعندما قلت له إنني لن أستقبل أياً منهم في بيتي من دون تواجده، أخبرهم بما طلبت منه، فقلبوه علي، إنني أريد أن أحيا كأيّ امرأة مع رجل يحبني ويحرص علي، أريد أن

أشعر بالأمان الذي افتقدته منذ حضوري إلى هذا البيت .

أنا ، كأيّ امرأة ، أحب سماع الكلام الجميل المنمق ، كأيّ أنثى رقيقة ، رومانسية بطبعها ، أريد أن أطرب أن أحلق فوق السحاب بكلمة رقيقة ، بلمسة عشق ، بهمسة حنان ، حتى حياتي الجنسية معه مملة روتينية ، لا إثارة فيها ، أشعر بالإحباط والكآبة وعدم الاستقرار في غريزتي ، صرت أكره الجماع ، فهو يريدني عندما يرغب هو ، ولا يهم ان كنت أبادله الرغبة أم لا ، يتناولني بشراهة ممزوجة بالقرف ، كما يتناول وجبته اليومية ، يتركني بعدها غارقة في اشمئزازي . . .

أنا أخجل من مصارحة أي كان بهذا الأمر ، أكتمه بنفسي مع بقية خيباتي المتلاحقة أدفنه في قبر احباطاتي وآلامي ، لم يعد بإمكاني استيعاب المزيد ، أصبحت مشوشة ، فاقدة القدرة على إقناع الآخرين بتعاستي . . .

هو يبني علاقته معي على أنني امرأة يجب أن تكون طوع بنانه ، بإشارة منه ، أجهز له طعامه ، أبتسم بإشارة ، أتكلم بإشارة ، بإشارة أخرى أدخل إلى سريره ، يتعامل معي بإشارة وبإشارة فقط ، هو يشير ، وعلي الطاعة . . .

لن أتحمل هذا الأمر أكثر ، لقد اشتقت لنفسي ، أتوق لأنوثتي ، لمشاعري ، لإنسانيتي . . .

٢٦

عندما خلوت بنفسي، مررت على شريط حياتي، استعدت ذكرياتي، خاصة بعد أن قابلت حكيم، حبي الأول ورجل أحلامي الوحيد، هو الذي يسكن قلبي منذ خمس عشرة سنة . . .

عندها فقط استعدت إرادتي وعزيمتي، واتخذت قراري لاقتناص فرصة لحياة أخرى علها تكون أكثر حياة وبهجة، لماذا لا أكون كالنسر ملك الطيور الذي يأخذ القوي منه فرصتين للحياة؟

فالنسر من أطول الطيور عُمُراً حيث يعيش فترة زمنية تقدر بأربعين سنة، أو سبعين سنة، يتوقف ذلك على إرادة النسر، وعزيمته، وقوته، ورغبته الأكيدة في الحياة، فإنه عندما يبلغ من العمر أربعين سنة، تتفتت مخالبه ومنقاره يصير معقوفاً، ما يفقده القدرة على الصيد والحصول على غذائه، فإذا كان ضعيفا ومسلوب الإرادة، فإنه يلتزم عشه في قمة الجبل مستسلما للموت جوعا، أما إذا كان يملك الإرادة القوية فإنه يعتكف في عشه ويأخذ بنحت الصخور بمخالبه ومنقاره حتى يبرز له مخالب ومنقار من جديد، فهو يتحمل الألم الشديد الذي ينتج عن هذه العملية الشاقة خمسة وأربعين يوما، ولكنه بعد ذلك يعيش ثلاثين عاما جديدة . . .

أريد أن أكون مثل هذا النوع من النسور، لا أقبل الخنوع، أو الاستسلام لهذا الواقع السلبي، أريد فرصة أخرى لممارسة حياتي من

جديد، أريد إكمال تحصيلي العلمي، الذي حرمني منه، أرغب في التعبير عن ذاتي، بكل أريحية، وأتمنى حياة طبيعية تعيد لي أحلامي وطموحاتي وغرائزي الأنثوية التي سُلبت مني قسرا، لقد أوضحت له رغبتي بالانفصال عنه وبكل صراحة، قلت له مرات عديدة:

– أنا لا أريد إكمال بقية حياتي معك أرجو أن تطلق سراحي دون "شوشرة" أو مشاكل . . .

وحيث أن زوجها من فصيلة النسر الضعيف الذي يكتفي بفرصته الوحيدة ولا يثابر ولا يقاوم، وليس له طموح يذكر في الحياة التي أصبحت عنده رتيبة، وكأنه يعيش يوما واحدا يتكرر على مدار العام بكل تفاصيله، فإنه لم يأخذ مطلبها هذا على محمل الجد، بل إنه تمسك بها أكثر من ذي قبل عندما رآها جادة في طلبها هذا، وحينما قالت له مباشرة:

– أنا لا أريدك وعقلي لا يريدك، ونفسيتي لا تريدك، وجسدي هذا لا يريدك، وعيني ويدي وقلبي وأحاسيسي لا تريدك، حتى إفرازاتي الربانية لا تتفاعل مع رغباتك وغرائزك الجنسية، ولا تنسجم مع تلك الرغبات بأي شكل من الأشكال، بل إنني لا أريد أن أكون وعاءً لتلك الغرائز والرغبات الأنانية.

هي تحاول جاهدة التأقلم مع حياتها المفروضة عليها، وأن تقبل بقدرها، حتى أنها جعلت من ممارستها للحياة ممارسة ميكانيكية، بأن سلخت واقعها عن مشاعرها وأحاسيسها وكل ما له علاقة بحبها وبرغبتها المتولدة من هذا الحب، جعلت من نفسها آلة همها الوحيد

التعامل مع أسرتها بما يتطلب منها الوضع الاجتماعي، تخدم أولادها وزوجها بجسد لا تحركه الروح، وعقل متجمد، وحركات لا إرادية، هكذا صارت بكل بساطة كما يريدها الجميع أن تكون، آلة، بلا إرادة، بلا أحاسيس، جسداً على شكل جسد، فارغ من الحياة، مُحنّط، بلا لون ولا رائحة.

ولكنها عندما تكون وحيدة مع نفسها، تنفجر بكاءً، تندب نفسها المحطمة، تصارع تناقضات الحياة وحيدة، لا أحد يقف في صفها، جميع من حولها يمارسون عليها دور الواعظ الشريف البريء المثالي، وأخص حماها الذي تحرش بها مرات عديدة ولا يأتي إلى بيتها إلا صباحا وهي وحيدة، حتى أنه في إحدى المرات دخل المطبخ ووضع يديه حول خصرها وأمسك بعجزها، فانتفضت كمن صعقته كهرباء، وتركت المكان من فورها خائفةً مرعوبة من تصرف حميها، أما هو فقد كان وقحاً لدرجة أن طلب منها فنجانا من القهوة، تركت البيت وذهبت إلى بيت أختها، لم تخبرها بما حدث معها، كانت ما تزال ترتجف من هول الفعلة الشنعاء، لم تعد إلى بيتها إلا بعد أن تأكدت أنه قد غادره، أغلقت على نفسها، لا تدري ماذا تفعل، تناولت جهازهاتفها الخلوي وأرسلت لي رسالة نصية، تقول فيها: "إحكي معي ضروري جداً".

اتصلت بها على الفور، لم أفهم منها أية كلمة، فقد كانت تجهش بالبكاء وهي تتكلم كلاما متقطعاً، طلبت منها أن تهدأ وأن تغسل وجهها بالماء البارد ومن ثم أعاود الاتصال بعد خمس دقائق.

قالت باصرار :
-لا ، لا تُغلق السماعة ، فقد هدأت .

ثم أخبرتني بالذي حصل ، لم أجد ما أقوله لحظتها ، فقد تملكني الخوف والقلق والقهر وقلة الحيلة .

قلت : تعاملي مع الموضوع بحكمة وروية ، فالأمر حساس وخطير بنفس الوقت ، فإذا قلت لزوجك أو لحماتك ، فإنهما لن يصدقا كلامك مقابل كلمته ، فمنزلته هو في نفوسهم كأب وزوج ، وأنت من تكونين في نظرهم غير زوجة الابن ، الغريبة التي تطالب زوجها بالانفصال كلما سنحت لها الفرصة لذلك ، وبالتالي فإنك تصبحين مجرمة بحقهم ويصبح هو ضحية لادعائك ، أخبري أمك فقط ، ولا أحد سواها ، ولا تجعلي من هذا الأمر سراً بينك وبين هذا المجرم ، وحتى يكون لك ذلك ، عليك عدم استقبال هذا الشاذ في بيتك بعد اليوم ، وإذا دخل البيت عليك المغادرة فوراً . . .

٢٧

بعد أن أغلقت خلود سماعة الهاتف بساعة تقريبا، اتصلت والدتها قائلة:

- هل أنت متأكدة من الكلام الذي قلته لي قبل قليل؟

قالت خلود وهي ما زالت ترتعش من شدة الخوف:

- نعم يا أمي بل إن هناك الكثير مما لم أقله بعد، وسوف أحدثك بكل شيء عندما أراك.

قالت الأم:

- لقد تحدثت مع أخيك، وكان قرارنا أن تحضري إلينا وأن تأتي بولديك معك، ولا تحملي من البيت أي شيء بل اتركي كل ما له صلة بهذه العائلة، حتى مصاغك اتركيه لهم، ولا تأتي إلا بما يستر جسدك.

استعدت خلود للسفر، وجهزت جميع أوراقها وأوراق أبنائها، وتحدثت معي من المطار مودعة، وقد كانت نفسيتها أقل انزعاجا، وكأنها ارتاحت لهذا القرار، ألم تكن هذه رغبتها؟

ألم تحلم بهذه اللحظة؟

الم تعاني مع أسرتها في سبيل إقناعهم بالانفصال عن زوجها؟

كل تلك الأسئلة، وكل أجوبتها البديهية لم تفسر لي حالة عدم الرضى التي تعيشها خلود من الانفصال عن زوجها بهذه الطريقة.

هي حقاً حلمت بالانفصال، ولكن ليس لهذا السبب الذي يندى له الجبين، وحلمت أكثر بالارتباط بي، ولكنها اليوم عندما قلت لها إنني سأتبعها بعد أسبوع، رفضت ذلك بإصرار قائلة:

- لا، لا تتبعني هذا ليس أوانه.

جنّ جنوني عليها، لدرجة أنني شعرت بالقهر والعجز وقصر اليد، شعرت كأنني أنشق نصفين، وأن قلبي يُسحق تحت ثقل الكلمات، لم أفهمها في البداية، بل لم أعط لنفسي الوقت بالتفكير في كلامها، ولم اهتد إلى مقصدها، ولذلك؛ فقد سيطرت على تفكيري العصبية وتسرعت في الحكم على ظاهر كلماتها، ربما لأنني لم أتوقع سماع مثل هذا القرار، أجل لم يكن في الحسبان أن تقول لي " لا تتبعني ليس هذا أوانه " كان كل حرف من حروف هذه الجملة يعبر عن قسوة وحكمة، عذاب وانتظار، بعد وجفاء، عندما تحدثت إليها بعد يوم واحد من سفرها، طلبت مني أن لا أطلبها على الهاتف النقال خاصتها إلا إذا هي طلبتني، هي لا تريد أن يعلم أي أحد في بيت والدتها عن علاقتنا، قلت لها:

- " طمئنيني " بماذا تفكرين؟

قالت باستغراب ظاهر:

- ألم تفهم بعد؟

- أفهم ماذا؟

- إذا تبعتني في هذا الظرف، فماذا يكون تفكيرهم؟

- آه. . . يا لغبائي!!

أنا لم أفكر بهذا الأمر، كل همي كان أنت، وكيف أكمل ما تبقى من عمري معك.

أنا الآن أوافقك على رأيك، فلن أظهر لأسرتك إلا عندما ينضج الظرف الملائم لذلك.

٢٨

ذهبت إلى "بتين" لأعود مصطفى؛ ابن خالي المريض، هو من نفس جيلي بل إنه ربما يكبرني بأشهر معدودة، كان يعاني من الصداع الشديد الأمر الذي أقعده في الفراش، أردت الاطمئنان على وضعه الصحي، لقد كان مهندسا ناجحا حتى أقعده المرض اللعين، هو الذي صمم لي بيتي ولم يتقاض مني أي أجر على ذلك، ولم يتسن له زيارتي لرؤية البيت بعد أن تم بناؤه، ليس لأنه لا يريد بل لأنه لا يستطيع المرور إلى القدس بسبب الحواجز اللعينة، التي تحيط بالمدينة، كم ألححت عليه بوجوب زيارتي! ولكن دون جدوى، فقد كان يخاف أن يقبضه جنود الاحتلال داخل القدس دون تصريح ويعرض نفسه للاعتقال، بعكس خالي الذي كان يحاول الدخول إلى القدس عبر الطرق الجبلية والوعرة التي اخترعها العمال المضطرون للدخول لطلب الرزق، وهذا ما لا ترضى به زوجة خالي حليمة، فقد دار حوار بين خالي وزوجته قال مصطفى إنه حوار المساء، مشيرا إلى أنه يتكرر كل يوم بين خالي وزوجته، قال خالي:

- تنسيش تصحيني بدري، بدي أسرح بكرة - إن الله أحيانا-

زوجة خالي:

- حاضر، ما أنا بصحيك كل يوم بدون هالواسطا، بس انت كل ليلة بتقلي " يا حليمة تنسيش تصحيني بدري، تنسيش تصحيني بدري

" صار لنا مع بعض خمسة وثلاثين سنة، حفظتك عن غيب .

خالي بانفعال :

– ول ول ول، شو صارلك يا مرة انفجرتي هيك؟

زوجة خالي :

– لأ، ولا إشي، بس بدي أطق من هلعيشة . . .

كل يوم . . بتطلع مع الضو وآخر النهار بتجيني إيد من ورا وإيد من قدام .

خالي :

– الله يرضى عليكي – ما تزيدي همي بكفي اللي فيّ .

زوجة خالي :

– شو همك انت ؟ وشو اللي فيك ؟ ما أنا بدي أفقع . ما في حبة قمح بالدار، وشو بدو يطعمي هل قطاطيم، ها؟ ثمن ولاد وأبوهم المريض، شو بدو يطعميهم ؟

خالي :

– استهدي بالله وخليني أنام يا مرة، قلتلك بدي أقوم بدري .

زوجة خالي :

– هذا اللي انت فالح فيه . . كل ما بحاول احكي معك مثل البشر . . بتقللي اتركيني أنام والله ما أنا عارفة شو أسوي معك .

خالي وهو يحاول الجلوس :

– طيب هه، بدي اشوف آخرتها معك، تفضلي قولي شو بدك هذا انا سامع .

زوجة خالي بكل برود :

- بشوفك عصبت .

خالي :

- ولا عصبت ولا حاجة، تفضلي احكي شو بدك تحكي .

زوجة خالي :

- مقلتليش شو رأيك بكلام امبارح؟

خالي :

- أي كلام . . ؟ مبارح قلتي كلام كثير متل عوايدك، ليل نهار كلام .

زوجة خالي :

- الأرض!!

خالي :

- مالها الأرض ؟

زوجة خالي :

- نظفها .

خالي :

- وهذه بتسميها أرض؟

زوجة خالي :

- احنا سويناها مزبلة، تركناها ورحنا نشتغل عند الخواجات، آل ايش مصاري زي الرز !!

خالي :

- هلأ بتحكي ها ؟ بس لما كنت أجيب كل يوم متين وتلتميت شيكل كنت مبسوطة كثيييير، صرتي تقولي بدنا نعمر دار لمصطفى ودار

لمحمود، وبدنا نجوزهم من بنات المختار وقبل ما يطلعوا من البيضة، وبدنا نشتري سيارة فوكس ونروح كل جمعة ع بلد، مرة ع يافا ومرة عل قدس ومرة عل خليل ومرة ع بيت لحم وصرتي كل يومين بدك ثوب جديد وكندرة جديدة وصرتي تحكي من منخيرك . . . وهلأ بتشكي وبتبكي ومش مستحملة ذبان وجهك .

زوجة خالي :

– لأ ما نسيتش، بس الوضع تغير . . وما بضل على ما هو الا هو .

خالي :

– هيني زي ما انت شايفة كل يوم بنزل أدور على شغل ومرة بتصيب ومرة بتخيب والرزق على ألله .

زوجة خالي :

– يوم بتصيب وعشرين بتخيب .

خالي :

– الرزق على الله .

زوجة خالي :

– والنعم بالله، بس الأرض لما بنظفها وبنزرعها بتسترنا .

كنت أتفحص مصطفى أثناء حوار خالي وزوجته، فكان غير مكترث لحوارهما، اعتاد على حواراتهما، وكنت في قرارة نفسي اتألم من وضع مصطفى الصحي، للحقيقة فإنني عندما رأيته على هذه الحالة، صُدمت صدمة شديدة من هول ما رأيت، فقد رأيت أمامي إنسانا آخر غير الإنسان الذي عرفته، رأيته شاحبا، ضعيفا، يداه ترتجفان باستمرار،

لا يستطيع التركيز لفترة طويلة، ولا يمكنه الوقوف بصورة سليمة، لقد أحزنني ما رأيت، وكدت من هول الصدمة أن أبكي، ولكنني تماسكت، خوفا من أن أسبب له الضيق، أو أزيد من آلامه، قضيت ليلتي تلك، عندهم تحدثت معه، استفسرت منه عن سبب هذا المرض، فقال لي إنه ورم صغير في رأسه يقع خلف أذنه اليمنى، وقد شخص له هذا الورم بعض الأطباء في مستشفى رام الله، وقال لي إنه بحاجة إلى عملية جراحية لاستئصاله، وطمأنني بأنه ورم غير خبيث.

سلبني التفكير به كل فرصة للنوم، أخذت اتقلب في مضجعي، تارة أنظر إليه بنصف عين، وتارة أستدير للجهة العكسية منه، وما أن بدأت أشعة شمس الصباح تتسلل على استحياء إلى غرفتنا، حتى سمعت جلبة زوجة خالي في إعداد الفطور المتوج بخبز الطابون ذي الرائحة الزكية ومن البيض البلدي المقلي بزيت الزيتون، وقلاية البندورة وطبق الزيتون الأخضر، والفلفل الحار والبصل، ووزعت اعدادا كبيرة من كاسات الشاي الذي تفوح منه رائحة النعناع، بعد أن أفطر الجميع، جلسنا حول سرير مصطفى، نسامره في محاولة منا للتخفيف من آلامه، كان يتألم بصمت الأولياء، فهو شخصية خجولة بطبعه، ولا يحب أن يسبب الحرج، أو التعب لمن حوله.

قلت له:

- لماذا لا تعمل العملية وترتاح من هذا العذاب، فالطب في هذه الأيام قد تقدم كثيرا؟

تطوع خالي للإجابة قائلا :

– لا توجد الإمكانات الفنية في مستشفيات الضفة لإجراء مثل هذه العملية، لأن الورم قريب جدا من مركز الدماغ ويخشى من التسبب بالشلل–لا قدر الله– إذا حدث أي خطأ، وأضاف : إن المكان الوحيد الذي تتوفر فيه مثل هذه الإمكانات هو مستشفى هداسا، ولكن هيهات هيهات، فلا يتوفر لدينا المال ولا التصريح لعبور القدس.

وهنا وقفت قائلا :

– بل يستطيع دخول القدس وإجراء العملية دون أن يدفع فلسا واحدا.

قال خالي مستغربا :

– وكيف يكون هذا يا فالح!!!؟

قلت :

– أعطيه هويتي، فيدخل القدس ويجري العملية في هداسا تحت اسمي أنا.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض، وعلامات الاستغراب مرسومة على وجوههم، ولكن البهجة قد ارتسمت على وجه زوجة خالي التي أخذت تدعو لي بطول العمر، والرضا، والرزق الوفير.

استأذن خالي في الذهاب إلى عمله، وتركنا بعد أن حضنني بين ذراعيه فشعرت بدفئه، ولمست دمعة كادت تسيل من عينيه، وقبَّل

وجنتي فشعرت بأنفاسه المعبرة عن آلامه الكبيرة . . .

لم تكف زوجة خالي عن الدعاء لي، ودموعها تسيل على خديها . . .

كنت أُحب زوجة خالي وأحترمها كثيرا، فقد كانت امرأة طيبة وحنونة ولطيفة، كانت دائمة الابتسام، وكانت تحب والدتي وتحترمها، هي امرأة جميلة، طويلة ونحيفة، تضع على رأسها غطاء ابيض من الحرير، أحب ثوبها الأبيض المطرز بألوان الحرير الحمراء، وهو من تطريزها، ولها شخصية قوية مؤثرة فيمن حولها، وأتوق دوما لتناول خبز الطابون الذي تصنعه مع الفجر كل صباح، كانت ترسل معي بعضا منه إلى والدتي قائلة :

- " خذ هذا الخبز لأمك وديلها اياه بسرعة قبل ما يبرد " .

اليوم رأيت ابتسامة زوجة خالي قد تحولت إلى حسرة وحزن على حال ابنها، رأيت الحزن في وجه خالي، رأيته في كل مكان في البيت على لوحة الجدار وعلى أوراق شجرة التين، وعلى لامبة الكاز المركونة في زاوية البيت، التي طالما كنا أنا ومصطفى نقرأ على نورها، صممت أن أقوم بواجبي مهما حصل لمساعدة صديقي وابن خالي في ضعفه، خاصة وأنه بحاجة إلى تلك العملية حتى تعود له صحته، ويرجع سليما معافى بإذن الله . . .

٢٩

تركت بطاقة هويتي مع زوجة خالي، وذهبت لانتظار مصطفى في الطرف الآخر من حاجز الرام العسكري، بين القدس ورام الله، كان الطقس حاراً ومغبراً، بقيت أنتظر مصطفى لأكثر من ثلاث ساعات، لم أشأ المغادرة حتى لقضاء حاجتي، خوفاً من أن يصل مصطفى ولا يجدني، وأخيراً أطل مصطفى يسير ببطء شديد، انتظرته حتى ابتعد عن جنود الحاجز، استقبلته وابتسامة لطيفة كانت مرسومة على وجهه الضعيف من شدة المرض، طلبت منه أن يتكىء على كتفي حتى نصل السيارة، ومن فوري ذهبت به إلى العيادة الصحية، ليعاينه طبيب العائلة، كان دكتور العائلة في المركز الصحي صديقي، وقد تكونت صداقتنا من خلال مراجعاتي للمركز، فهو يعرفني معرفة جيدة، طلبت محادثته على انفراد، فدخلنا إلى غرفة مكتبه، حدثته عن حالة مصطفى وعن نيتي مساعدته في إجراء عملية جراحية له في مستشفى هداسا، باستعمال بطاقة هويتي، امتقع وجه الطبيب، وغادرته تلك الابتسامة، وقال بلهجة جدية وحازمة:

- هذا أمر جد خطير وله عواقب وخيمة عليك وعلي وعلى المريض، سأعتبر حديثي معك كأنه لم يكن، أنا لا أريد أن أعرض مستقبلي المهني للخطر.

قلت:

- ولكن حالة المريض هي التي في خطر، كنت آمل أن تتفهم

موقفي، هذا إنسان مريض وبحاجة إلى عملية جراحية فوراً، وهو لا يملك المال لإجرائها، بل لا يملك بطاقة تؤهله للمعالجة في القدس، وعلينا مساعدته.

الطبيب:

- لا يمكن له أن ينتحل اسمك في هذا الأمر بالذات، هو ممكن أن يستعمل هويتك للمرور إلى القدس، أو لأي أمر آخر إلا هذا الذي تطلبه، افرض -لا قدر الله- أن العملية لم تنجح، وأن المريض توفي جراء فشل العملية، خاصة وأنها في مكان حساس وهو الرأس، فباسم من نصدر شهادة الوفاة حينئذٍ؟ باسمك؟ فتكون نهايتك، أم باسمه الحقيقي وتكون نهايتنا جميعاً؟

- أنا لا أفكر بهذا الآن، كل ما يهمني هو انقاذ هذا الإنسان ومساعدته على الشفاء. انت لا تدري ماذا يعني لي هذا المريض، إنه صديقي وابن خالي، لقد كان شاباً وسيما، متعلما، ومهندسا ناجحاً في عمله، لديه أسرة، زوجة صابرة وثمانية من الأطفال، أكبرهم لم يصل المرحلة الثانوية بعد، هذا الشاب لم يأت من فراغ، إن لديه كياناً، وأحلاماً لم يحققها بعد، كان يخدم الغريب قبل القريب، فلماذا لا يجد الآن من يخدمه؟

أنا أيها الطبيب قد اتخذت قراري بعدم التخلي عنه، مهما حصل، وأنت قلتها في البداية، اعتبر نفسك لم تسمع مني كلمة، ودعني أكمل

ما بدأت به .

الطبيب بتحفظ ظاهر :

– حسناً ، أنا لم أسمع شيئاً ، ولا أعرف عن هذا الموضوع ، وبذات الوقت ، لن أقف في طريقك .

قلت :

– وهذا ما أريد ، ولا أريد منك شيئاً غيره .

قدمت للطبيب التقارير الطبية مصحوبة بصور الأشعة حتى يكتب تقريره ، ويحول المريض إلى مستشفى هداسا في "عين كارم" .

٣٠

انتهزت فرصة وجود والدة خلود في بيت حنينا، توجهت إليها طالبا لقاءها بحجة أنني صديق ولدها وليد، الذي يعيش في أمريكا، جلست أنتظر حضورها بفارغ الصبر، تملكتني الوساوس والأفكار المتضاربة، جلست نصف جلسة على المقعد الوثير، كنت مشوشا، وقلقا، أفكر بكل التوقعات، إلا أن ترفضني زوجا لابنتها . . .

حضرت والدة خلود تمشي ببطء شديد، فقد كانت امرأة طاعنة في السن، سمينة، بيضاء البشرة، ملامحها تشبه ملامح خلود، لها رهبة ووقار، وعندها نظرة ثاقبة، أخذت تتفحصني دون أن تتحدث بشيء، تنظر إلي بتمعن، تمرر ناظريها على صفحات أفكاري، تتجول بعمق بين متاهات نفسي، تطالعني، تقرأني بإمعان فاق خبراء النفس، شعرت كأنها تعرفني معرفة أكيدة، بل أنها تعرف سبب حضوري هذا، تعرف كل حرف يتهيأ للانطلاق من بين شفتي، كادت تبعثرني أجزاءً صغيرة بين يديها، لم تعطني ربع فرصة للتعبير عن نفسي كما خططت قبل حضوري بأيام بل أشهر وسنوات، لقد حصرت مهمتي ورغبتي وطموحي وحبي الذي طال على مدى عشرين سنة بهذه اللحظة التي أقف بها أمامها كطفل يتلقى درسه الأول . . .

رحبت بي ترحيبا باردا لا حياة فيه، قلت لها أرغب في محادثتك على انفراد . . . وبإشارة من عينها خرج كل من في الغرفة . . .

قالت بصوت ناعم لا يكاد يخرج الحرف من بين شفتيها :

- تفضل ها نحن وحدنا .

أطرقت لا أستطيع الكلام كأن لساني قد لجم، وكأنني نسيت معجم الكلمات مرة واحدة، نسيت شكل الحروف وأصواتها، مُسحت من ذاكرتي كل مفردات اللغة، كانت لحظة رهيبة، ربما لأنني لمست بفراستي الإجابة المتوقعة عن طلبي، فلم أرد الوصول إلى لحظة حسم مع الموقف، خفت أن ينتهي تاريخي مع حبيبتي بهذه اللحظة المميتة، ربما لذلك قد ارتبط لساني، ولم أجرؤ على الإقدام بالركلة التالية، إذ إن الكرة الآن في ملعبي، شعرت العالم بل الكون يضيق في مساحة لحظة من الزمن . . .

قلت متلعثما :

- كيف حال وليد؟

قالت بثبات وحزم :

- أنت لم تحضر وتطلب الحديث معي على انفراد حتى تسالني عن وليد بهذا السؤال الساذج! تحدث بما جئت من أجله وأنا بانتظار ذلك . . .

وضعتني أمام نفسي مرة واحدة، لم يعد من مفر أمامي فهذه المرأة قوية الشكيمة، وتعرف ما في نفسي، بل إنها تعرف كل شيء عني، وعن علاقتي بخلود . . .

نظرت نحوي نظرة آمرة تحثني فيها على الكلام، هي تعرف ما سأقول، ولكنها تريد أن تسمع مني، أدركت هول موقفي، إنها لحظة الحسم، لحظة يتحدد فيها مصير حبي الذي أحمله بين أضلعي، حبي

الذي يتغلغل في أوعيتي، يمتزج مع دمي يعيش بين أنفاسي، في هذه الثواني من الزمن يتقرر مصير سنوات طويلة طويلة من السهر والانتظار و الرجاء، ومضة من الزمن تتحكم بآمالي وطموحي ورجائي، ربما أكون تسرعت في مقابلة هذه المرأة التي طالما اعتبرتها حماتي المستقبلية، ربما كان قراري متهورا!!!

كان علي مشاورة خلود قبل حضوري، كنت أرغب بمفاجأتها بهذه الزيارة، أن أسعدها، بأنني صرت قريبا من أسرتها، بانني تقدمت بطلب يدها. . . هي مفاجأة فعلا، ولكنها مفاجأة سيئة علي ما أظن، سوف تعتبرها خلود خطوة تدميرية لعلاقتنا مع أسرتها، سداً عالياً أمام تلك العلاقة، عقبة يصعب تذليلها. . .

لا تزال الحجة تنظر إلي بصبر وبرود ظاهرين، تحثني بنظراتها على الولوج بالحديث الذي جئت من أجله. . .

بثوانٍ قليلة تمر أحكمت تفكيري، مررت على شريط حياتي، أخذت أزن الموقف، بين أن أقدم على ما جئت من أجله، أو أتراجع عنه، وجدت نفسي أمام أن أطلب يد خلود من والدتها التي تجلس متحفزة كأنها تستعد للانقضاض علي، أو انسحب من أمامها متراجعا.

لا علاقة هنا بين الشجاعة والجبن، أو بين الانتصار والهزيمة، بل الأمر أكبر بكثير من ذلك، فهو بين تحقيق الحلم، أو تحطيمه بصورة لا يمكن معها ترميمه من جديد، بين الفوز بتتويج هذا الحب بعلاقة شرعية وأخلاقية وبين بقاء هذا الحب معلقا بين السماء والأرض.

لم تزل الحجة متحفزة، مستنفرة، متوثبة، لم تنزل عينيها عني، بل إنني لم أجرؤ على النظر إليها خوفا من أن تلتهمني، وتمزقني بنظراتها، لا أدري ما ستكون خطوتها التالية! أما أنا فقد قررت الخروج من الميدان هذا والانسحاب بأقل الخسائر، لملمت نفسي، ورسمت بعض ابتسامة، وقلت:

– الحمد لله على سلامتك يا حاجة، وأرجو أن ترسلي سلاماتي إلى وليد، ونظرت إلى ساعة يدي مستعينا بها على أنني على موعد مهم، وعلي المغادرة، وقد وعدتها على أن أحضر للزيارة مرة أخرى، وتركت المكان قبل ان تقول هي أية كلمة، فقد نسلت نفسي من أمامها نسلاً، لم أعطها ربع فرصة لتمزيقي، تركت المكان، بين ذهولها وحيرة كل من في البيت، وانطلقت مبتعدا بأسرع ما أستطيع دون أن أنظر خلفي.

ربما كنت واهما بما شعرت به آنذاك! ربما هو الخوف الذي تحكم بي، نعم أظنه الخوف، فعندما يتحكم بنا الخوف؛ يشل جهازنا العصبي، فلا نستطيع الحراك أو التفكير بصورة سليمة، حتى بصيرتنا يصيبها العقم، ويبرد الجسد ليصبح جثة هامدة، أنا أعطيت الأمر فوق ما يحتمل، لا أحاول هنا إيجاد المبرر لتصرفي أمام المرأة، ولكنني خلت مصير علاقتي بخلود يقف أمام منعطف خطير، وأخطر ما فيه السرعة التي من شأنها التهور الذي يسقطنا من فوق الجرف إلى قعر الوادي السحيق، كنت أمامها كمن يواجه الموت بصدره العاري، خلت نفسي أمام مارد جبار لا مكان للمشاعر عنده، حاولت التجول بن متاهات نفسها بلمحة سريعة، علني أجد منفذا ألج من خلاله إلى قلب المرأة

التقليدية، الأم التي تعطي لنفسها كل الحق بالتفكير واتخاذ القرار نيابة عمن يخصها بحجة الأمومة، لدرجة أنها تصادر هذا الحق من صاحبة العلاقة نفسها.

أنا لا أُنكر حق الأم بالصحبة، وحقها بالبر، والوفاء، والاحترام، ولكن لكل منا نحن البشر حق بالحب، وبالإحساس، وبالحياة بالطريقة التي نعتقد أنها هي التي نريد، ونحياها بالأسلوب الذي نريد، لنا الحق باختيار اللون، والنغم والحلم الذي نحلق معه نستنشق من خلاله عبير الحياة، نعيش حرّها وبردها، ألمها وبهجتها، حزنها وفرحها، سوادها وبياضها، قهرها وطوعها، غضبها وسكونها. نجاحها وفشلها، شمسها وفيئها

٣١

فور وصولي إلى البيت نظرت إلى نفسي في المرآة، كان وجهي شاحبا، كمن خرج لتوه من مدخنة فرن يعمل على حطب خشب الزيتون، تناولت جهاز الهاتف بيد ترتجف من شدة الانفعال، اتصلت بخلود، نقلت لها ما حدث في بيت أهلها مع والدتها، نقلت لها كل شيء بالتفصيل الممل، علقت على كلامي قائلة:

-كان عليك مشاورتي قبل الإقدام على تلك الخطوة، أنت لا تعرف أن ياسين أرسل يريد إرجاعي إليه، وهو يتصل مع أخي كل يوم من أجل ذلك، ولا يمضي يوم إلا ويرسل من يتحدث مع أخي من أقاربه الذين يسكنون في نيويورك، وسمعت أخي يتحدث في الهاتف عن توفير شقة مستقلة لي كأحد شروط إعادتي، الأمر الذي أزعجني كثيرا، وما يزعجني أكثر؛ أنهم لا يشاركونني بالرأي في ما يخصني أنا، هم يخططون ويتفاوضون ويقررون، دون الرجوع إلي أنا صاحبة الشأن الوحيدة.

-نعم، هذا ما شعرته أثناء مقابلتي لوالدتك.

-أخي صورة طبق الأصل عن والدتي في موقفها.

-ربما لا يصدقون ما حدث معك!

-أظنهم يصدقون ولكن الموقف حساس جدا، هم لا يريدون لهذا الأمر أن يتسع، لأن انعكاساته السلبية علي أنا، أكثر من انعكاساته على "سيئ الصيت" عمي، لقد أنكر كل شيء عندما تحدث معه أخي عبر

الهاتف، لقد ادعى أنني كاذبة، وأنني اخترعت هذه القصة لغاية في نفسي، كان أخي حازما معه في البداية ولكنه في الفترة الأخيرة صار لينا نوعا ما، وهذا ما أخافني، أنا وأنت الوحيدان على يقين مما حدث معي، فمهما كانت قراراتهم فإنني لن أعود لذلك المستنقع مرة ثانية، سوف أنتظر ما يخططون له، ولكن القرار النهائي لن يكون إلا قراري أنا صاحبة الشأن، انا التي أعاني وليس هم، أنا التي تتعرض للعذاب والإهانة وليس هم، فأنا إذن من يقرر وليس هم . . .

-على رسلك يا حبيبتي، هم أهلك، ويخافون عليك أيضا، وما حدث معك بالتأكيد آلمهم أشد الألم، دعينا ننتظر، وعليك التحدث مع أخيك في ساعة صفاء وبهدوء دون عصبية، احكي معه بكل أريحية، قولي له عما يجول بخاطرك، حدثيه عن كل ما واجهتيه بحياتك، تقربي إليه، صادقيه.

-لا تقس علي يا حياتي، أهم شيء بالنسبة لي الآن عدم الرجوع لذلك المكان مهما حصل، لن يستطع مخلوق في الدنيا إجباري على ما لا أريد، لقد كانت معاناتي كبيرة وقاسية نتيجة قراراتهم التي تحكمت بحياتي من قبل، فقد كان قرار زواجي قرارهم، لم تكن عندي أدنى رغبة في ارتباطي بياسين، لقد جرت الأمور آنذاك بسرعة غريبة، مرت كأنها ومضة، لم تترك في نفسي أي أثر كبقعة من سراب، لا أدري كيف مرت على حياتي، في البداية، كانت الأمور وكأنها لا تعنيني في شيء، كنت لا مبالية لدرجة التفريط، ربما يكون هذا السبب الذي جعلهم لا يأخذون برأيي الآن! أو لا يسألونني عن رأيي حتى! ولكن

المعادلة تغيرت، اليوم، أصبحت حياتي على المحك، كانت الفترة السابقة قاتمة، سوداء، لا حياة فيها، أما الآن فقد اختلفت الموازين عندي، و تبدلت الأشياء.

الآن لن أتنازل عن موقفي، لن أهدر حقي، لن أعود إلى تلك الحياة مهما كان الثمن، أنا لم أنس الليالي الباردة كثلج حرمون، لم أنس السهر الطويل لا رفيق لي إلا دموعي، لم أنس تحرشاتهم الوقحة، ونظراتهم التي كانت تنهش لحمي نهشا، كان كل يوم يمر عندهم يأخذ معه شيئا من نفسي ومن أعصابي، ومن استقراري. . .

انا لغاية هذه اللحظة لم استخدم أسلحتي في الدفاع عن نفسي وعن حياتي، ولكن علي قبل كل شيء أن أوصل لأخي وأمي رسالتي بلغة واضحة لا لبس فيها، وذلك بأنني أرفض كل الحلول التي يحاولان توريطي بها إذا لم تكن كما أريد أنا، أخي شاب رقيق، خجول في الأربعين من عمره، أنا لا أشك في مدى حبه وإخلاصه وخوفه على مصلحتي، من وجهة نظره هو، هو ما زال أعزب لم يتزوج رغم إلحاح والدتي المستمر عليه بالزواج، حتى أنها كل يوم تخبره عن اسم فتاة من عائلتنا أو من البلد، وهو يرد عليها قائلا:

-لم يحن الوقت بعد يا أمي.

كانت أمي وشبكة صديقاتها يحضرن صور البنات أحيانا لإقناعه بإحداهن، وأحيانا كُنّ يحضرن البنت نفسها، لكنه كان يرفض هذه الطريقة بالاقتران بمن تشاركه حياته، كان يؤمن بأن الأمر مرهون به

نفسه، هو من سيجد شريكة حياته، وسوف يأتي يوم ويقابل المرأة التي تخطف بصره وقلبه في آن معا، وعندها يتحقق فقط حلم والدتي بتزويجه . . .

في الحقيقة هذا التفكير الذي يتمتع به أخي هو بصيص الأمل الذي يكسر ظلمة موقفي، رغم أنه يناقض نفسه عندما يتعلق الأمر بي، فيأخذ موقفا سلبيا في أغلب الأحيان، خجلا من الوساطات التي يرسلها ياسين بحجة الأولاد تارة، وبحجة الشرع تارة أخرى، متناسين أن الشرع لا يهضم حق المرأة أبدا، ولكنهم يتعاملون مع هذا الأمر بجهالة تامة . . .

في البداية دعنا نرجئ أمرنا قليلا، حتى أكمل اجراءات الطلاق كليا، واطمئن يا عمري لن أكون أنثى لرجل غيرك مهما حييت يا مهجة الروح، ولكن علينا بالصبر، فأنا لا أريد خلط الأوراق في هذا الوقت . . .

٣٢

لم يكن بانتظار خروج مصطفى من العملية غيري، لاحظ علي أحد العمال العرب الذي كنت اعرفه معرفة سطحية، أنني كنت قلقا كثيرا، فجاء يهدئ من نفسي قائلا:

الدكتور غسان ماهر جدا في مثل هذه العمليات، يأتون إليه من جميع أنحاء العالم، لمهارته وندرة تخصصه، فلا تقلق على قريبك كثيرا.

-هل تقول إن الدكتور الذي يجري العملية هو عربي؟

-نعم، وهو أمهر بكثير من أي طبيب آخر في هذا التخصص، ولولا مهارته هذه لما كان في هذا الوضع المتقدم بين الأطباء.

لقد هدأت نفسي كثيرا عندما عرفت أن الطبيب عربي، بصراحة، لم أتوقع أن يكون هذا الطبيب عربيا، فشكله لا يختلف عن الآخرين في شيء، ويتحدث بلغتهم، ويصغون إليه باهتمام عندما يتحدث، ولذلك لم أشك بأنه واحد منهم.

مضى على دخوله العملية أربع ساعات تقريبا، أخذت أتوتر، زاد قلقي، تحول هذا القلق إلى خوف، عندما تذكرت كلام طبيب العائلة، ماذا سيحدث لو أن العملية لم تنجح، وحصلت مضاعفات لمصطفى، ماذا لو أنه توفي-لا سمح الله-؟

هل تنتهي حياتي آنذاك؟
هل ينتهي وجودي، وتاريخي، وتراثي؟
ماذا سأقول حينها لخلود؟
هل أقول لها إن حكيم قد مات؟ وإن الذي أمامها شخص آخر؟
أسئلة كثيرة تصارع تفكيري، تلتهم أعصابي، تنهش تركيزي، توترني لدرجة الرعب.
ولكن في المقابل، ألم أكن أنا من قررت مساعدة ابن خالي وصديقي في محنته؟
هذا واجبي، وأنا لست نادما على ما أقدمت عليه، بل أنا سعيد بأنني عملت ما يجبُ علي عمله، ولو كان العكس لكان أيضاً مصطفى وقف معي بنفس الموقف بل أكثر من ذلك.

أنا قلق فعلا، ولكن هذا الأمر ليس بيدي، ولا أستطيع سلخ نفسي عن الواقع الخطر الذي نعيشه، أنا خارج غرفة العمليات، ومصطفى داخلها، هو لا يشعر بشيء بفعل "المخدر"، وأنا أحسده على ذلك، لأنه لا يعيش حالة الانتظار الرهيبة التي أعيشها هنا، سوف يستيقظ بعد ساعات من انتهاء العملية الجراحية، دون أن تسجل تلك الساعات في ذاكرته، نعم، سوف يزيد الألم عنده على أثر الجرح الكبير الذي تركته العملية في رأسه الصغير، ولكن جرح الجسد أخف بكثير من ألم الانتظار والترقب، والخوف، خاصة إذا كانت نتيجة هذا الترقب ذات احتمالات مؤلمة، وربما تكون نتيجته سعيدة، ولكن عند الانتظار تطغى على النفس احتمالات الخطر أكثر.

كان الدكتور هو أول من خرج من غرفة العمليات، هذه المرة نظرت إليه كأنني أعرفه منذ قرون، توجهت نحوه سائلاً:

-يعطيك العافية يا دكتور، كيف حال المريض؟

-الحمد لله، كانت عملية صعبة، فقد كان عنده ورم قريب جدا من الدماغ، ولذلك كانت عملية من العمليات الصعبة، والدقيقة جدا، لقد جاء في الوقت المناسب، ولو أنه تأخر قليلاً بالمجيء، لكان من المستحيل إجراء العملية له، ولبقي طيلة حياته لا يدرك الأشياء ولا يحس بها، أو يصاب بالشلل التام.

-الآن، يا دكتور، كيف هو الآن؟

-ننتظر حتى يفيق من البنج، ثم بإذن الله يكون طبيعيا كما كان من قبل.

-الحمد لله، شكرا لك يا دكتور وبارك الله فيك.

-الشكر لله وحده.

كان الطبيب متواضعا بصورة لافتة، فرغم مكانته الرفيعة بين الأطباء، ورغم المهابة التي تحيط به، فإن الابتسامة لا تغادر محياه وهو يحدثك، هو من ذلك النوع من الناس الذي يستحيل الجزم بعمره الزمني.

خرج مصطفى من غرفة العمليات في منتصف النهار، وقضى بقيته نائما، متأثرا بالبنج، قبل مغيب الشمس بقليل، فتح عينيه، وجال بناظريه في أرجاء الغرفة، وحين لم يجد أحدا غيري، ابتسم لي ابتسامة المتعب، وأغمض عينيه مرة ثانية، عندها فقط قمت بالاتصال بخالي لأبشره بان مصطفى قد أفاق من البنج.

٣٣

توالت المباحثات المكوكية بين أخي ومبعوثي ياسين، من أصحاب الحظات والعقل، رجال الإصلاح بين الناس، كان أخي يحاورهم دون أن يذكر ما حدث لي، وهم بدورهم تعاملوا مع الموضوع بخبث ولؤم ظاهرين، وكان ياسين كلما أراد أخي ذكر هذا الموضوع معه، يتهرب منه، مشككا ورافضا كل روايتي، لدرجة أنني صرت مشمئزةً منه أكثر من ذي قبل، لم أجد بصيص أمل بانتهاء علاقتي كليا بياسين بطريقة هادئة، ولذلك فقد قررت أن لا أستمع لما يحدث بين أخي وتلك الوساطات، وعندما يقول لي وليد إنه قد تحدث مع بعضهم، أقول له:

- لا أريد سماع أي حرف بخصوص هذا الأمر، أنا لا أجد فائدة من كل هذه المحادثات لأنها قائمة على غير أساس، فهم لا يعرفون حيثيات المشكلة، وإنما يتحدثون عن ظاهرها من الخارج، فكيف يبنون آراءهم على الغيب والجهل بالأمر؟

أنا الوحيدة التي أعرف تفاصيل التفاصيل، وأنا تكلمت معكم عن كل شيء، إلا أنكم بكل أسف لم تتعاملوا مع ما حدثتكم به بجدية توازي ثقل القضية، بل تعاملتم معها باستهتار وإنكار لما قلته لكم، وهنا فإنني أكرر ما قلته، وأقسم بأنني لم أقل إلا الصدق بخصوص ما حدث من أمر حماي، هذا الوحش الذئب، الذي أراد نهش جسدي وأنا زوجة ابنه، هو ينكر الأمر، ومستعد أن يقسم على الكذب، وقد توقعت منه

ذلك، لأن من يقوم بهذا العمل الشائن، يرى كل الأمور سواسية، هو يقول إنني ادعيت عليه لأمر في نفسي، وأنا أقول " حسبي الله ونعم الوكيل " ، أنا لا أريد منه أي شيء، ولا من ابنه أيضا، كل ما أريده هو الاستقلال بنفسي، ونيل حريتي، واستلام زمام أمري. . .

كان وليد يستمع إلى كلامها باهتمام هذه المرة، وتفاعل معها حتى أبكته، ربت على ظهرها بحنان الأخ المحب قائلا:

– كل ما أردت أن أقوله لك أنني أخاف عليك، وعلى ابنيك، اللذين لا ذنب لهما في كل ما يدور بينكما، وأن الرجال الذين تكلموا معي هم أصحاب فضيلة، وهمهم رأب الصدع، وقد وجدت فيهم الصدق والإخلاص في النية.

– ولكنهم لا يعرفون كل شيء، وفاقد الشيء لا يعطيه.

–لقد قرروا أن يكون لك بيت مستقل.

– ليست المشكلة بيتاً مستقلاً أو غير مستقل، إنما الأمر بالإنسان نفسه.

أنا لا أطيق الحياة معه، ولا أجد الأمان على نفسي عنده، هو لم يدافع عني في لحظة من اللحظات، كان غير مبال عندما شكوت له تصرفات أبيه أو إخوته، الذين كانوا يحضرون إلى بيتنا من دون زوجاتهم، وغالبا ما يأتون من دون أن يكون ياسين موجودا، كنت أحترمهم في البداية من باب الواجب، ولكنني عندما رأيت نظراتهم الذئبية، المتوحشة، تبدلت معاملتي لهم، فقد " قرفت " منهم.

– أنا لا أستطيع ذكر هذه التفاصيل لأي كان، فهذا الأمر من شأنه إثارة زوبعة لا تحمد عقباها.

– إذن، لن يكون الحل مع هؤلاء القوم حلا عادلا؛ لأنه لا يقوم على معرفة جميع جوانب القضية.

– إنهم يعرفون كفاية.

– هل وقعت إحدى بناتهم فريسة لنظرات ذئب من الذئاب المتوحشة كالتي حاولت نهشي؟

– هل باتت بنت من بناتهم ليلتها تلبس جميع ملابسها خوفا من أحدهم عندما غاب زوجها في عمله؟

– ولكنني أعطيت الجماعة كلمة، بأن ننهي القضية هذا الأسبوع، وهم على هذا قادمون إلينا الإثنين القادم أي بعد أربعة أيام.

– طالما انك متفق على موعد معهم، بل وتجدك متفقاً معهم على تفاصيل الحل، فماذا تريد مني الآن؟

أنا لن أعود إليهم مهما حصل.

أرجوك لا تزعج نفسك بأمري بعد الآن، أنا صاحبة القرار بهذا الأمر، وإذا خفتم أن أكون عالة عليكم، فلا تقلقوا من ذلك، فأنا أستطيع تدبر أمري.

– ماذا تقولين؟ هذا بيتك وإذا ما شالتك الأرض، تشيلك عيوننا.

– قلت لك يا أخي الأمر الوحيد الذي أقبل به الآن هو الانفصال التام عن هذه العائلة.

– الله يهديك، لا تهدمي أسرتك ومستقبل أبنائك،
يوم الاثنين نجلس معهم، ويفعل الله ما يشاء.

لم يكن بالإمكان أخذ رأي خلود في ذلك اليوم، إذ أنها لملمت نفسها، ورممت بقايا حلمها، وانطلقت دون أخذ رأيهم، فلم تعد سلعة، على مائدة رجولتهم.

٣٤

الانتظار . . . الشيء الوحيد الذي باستطاعتي عمله في هذا الوقت . . . خلود طلبت مني ذلك حرفيا، لأن موقفها حساس جدا، هي لا تريد أن تعتقد العائلة أنها انفصلت عن زوجها بسببي أنا، بل تريد أن تؤكد بأنها كانت صادقة فيما قالت عن حماها، وعن زوجها، وأنها تريدني أن ارتبط بها وأنا نقي السريرة، والسمعة، تريدني ورقة بيضاء في عالم أسرتها، تخط عليها ضميرها، وقلبها الذي يذوب بين خفقات قلبي، وترسم حياة، زنارها من السعادة والتفاهم، يتحقق فيها الحلم، والأمل الذي حملناه بين أضلعنا سنوات طوالاً . . .

أنا لا احب الانتظار لأنه يشتتني ويحرمني من التركيز في حياتي العملية، فلا أعطي الأمور حقها . . .

كنت قد انتقلت من عملي بالتدريس إلى وظيفة إدارية، ولكنني لم أتخل عن عملي بالتجارة، فهي التي باركها الأنبياء، وهي مصدر دخلي الحقيقي . . . انتقلت خطوات واسعة بدخلي المادي، وتحسنت أحوالي وصار عندي بيت وحانوت، ووسائل راحة يحسدني عليها الكثيرون، كان أعظم ادخاراتي على الاطلاق ورأس مالي الحقيقي هو شبكة علاقاتي بالناس والمجتمع، فاستخدمت رأس مالي هذا استخداما صحيحا، بنيت جسور الثقة مع الناس، لمست احتياجاتهم الحقيقية، صنعت لهم نبراسا، يضيئون به ظلام واقعهم الصعب، ورسمت لهم الطريق للوصول إليه، آمنوا بي وبأحلامي الكبيرة، وساروا معي بخطى ثابتة، تجمعنا المحبة والهدف، وزرعنا حقول القدس ببذور الأمل التي

تعمقت جذورها هناك داخل الصخر المرمري، زرعت الإنسان على أرضه، جنبا إلى جنب مع أحلامه النرجسية، وكان مع كل نبتة تعانق تربتها الطاهرة، تسكن الطمأنينة، ويزداد الأمل إشراقا، وأنا مع كل هذا، أرتقي نحو المجد ارتقاءً.

هم يغيرون اسماء الشوارع، صار الواد "حاجاي" والمصرارة "نفئيم" والشيخ جراح "هار هتسوفيم" وحارة الشرف "حارة اليهود، والقدس، كل القدس صار اسمها "أورشليم" . . .

وأنا لي دور أقوم به . . .

نعم، لي دور، وعلي القيام به، أنا عازف منفرد، لا يمكن أن أعزف بمصاحبة آخرين، لأن النغم يصبح نشازا، لأنهم لا يتقنون قراءة "النوتة" الموسيقية التي ألفتها لحظة هدوء مع النفس، ألفتها لتعزف من قبل عازفاً واحد، وهذا أنا، أعزفها ويطرب على نغمها الشهداء، هم وحدهم الذين يستطيعون الغناء، وأنا أعزف لهم تلك النغمة التي يبتسم لها التراب المقدس، نحن وهذا التراب امتزجنا امتزاجا عضويا، هو موجود إذا كنتُ أنا الإنسان موجوداً، وهو مسلوب إذا كنتُ أنا الإنسان مسلوبَ الإرادة والمكان . . .

هذا طريق اخترته، وتركت كل المفارق، والتحويلات، والمؤتمرات، والجماعات، لأنني تعبت من كل الانتكاسات، والمؤامرات، لا أحب المفاجآت، هنا، أنا أقرر، أنا أرسم وأنفذ، أتنفس القدر الذي أريده من نسائم الهواء، أتنفس حينما أريد، ويخفق قلبي بالسرعة التي أريدها، ويبرق نظري قبل الرعد الآتي من البعيد البعيد، أنا هنا صاحب المبادرة، وصديق كل ذرة من سمائها، زرعت البشر كما تزرع شجر الزيتون بين

الصخور، فنبتوا كما نبت الحنون. . .

أصبح لكل شيء مذاقه الخاص، رجع للزعتر طعمه، ورائحة الصنوبر، بدأت تتغلغل إلى أنوفنا بذلك العبق الساحر، وصحن اللفيتة الذي تناولته على الإفطار مع مصطفى، وحينما قلت لزوجة خالي إن هذه الأكلة لذيذة جدا، قالت بكل فخرها وكبريائها:

-هذا من أرضنا، لفيته مقلية بزيت الزيتون والبصل، "شفت كيف الأرض كريمة"؟